مطالعات في الثقافة الجاهلية

تأليف
الباحث والمحقق
الشيخ عباس أمين حرب العاملي

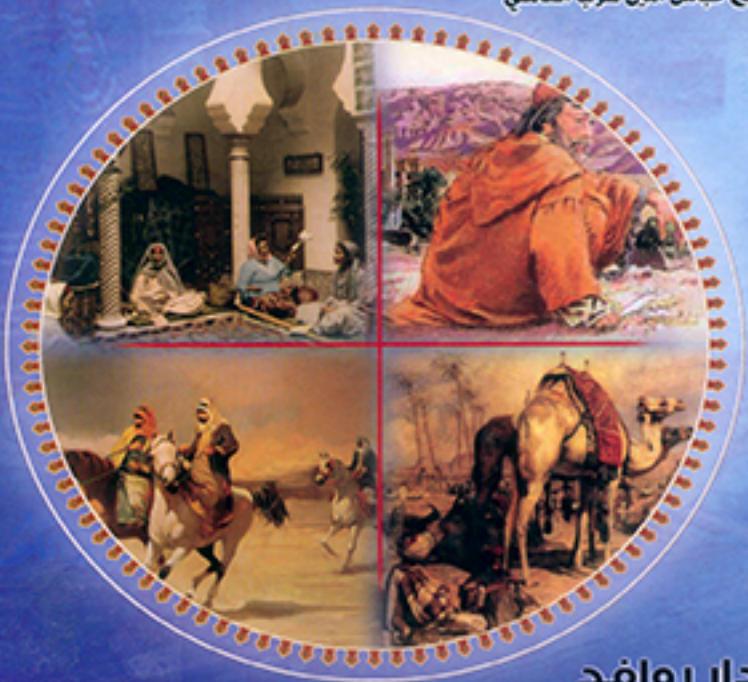

دار روافد

مطالعات

في الثقافة الجاهلية

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
٢٠١٥ م - ١٤٣٦ هـ

ISBN: 978-614-426-398-3

دار روافد
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ت: 71/868980
darrawafed@yahoo.com

التنفيذ الطباعي : دار المحجة البيضاء

مطالعات

في الثقافة الجاهلية

تأليف

الباحث والمحقق

الشيخ عباس أمين حرب العاملي

دار روافد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على سيدنا ونبينا محمد وآله الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وعلى أصحابه المنتجبين الذين أتبعوه بإحسان إلى يوم الدين.

تمهيد:

في الفصول الأربعة التالية مطالعات في الثقافة الجاهلية العربية: فأما الفصل الأول منها فعن صورة حياة الجاهليين كما يمكن إستخلاصها من آيات القرآن الكريم بالإستعانة بتفاسيره وكتب أسباب نزوله.

ولا ريب في أن القرآن الكريم هو المصدر الذي يعلو على كل مصدر آخر في الكلام عن الجاهليين وحياتهم وممارساتهم.

وهذا الفصل هو بمثابة المِهَاد التاريخي والإجتماعي للفصول الثلاثة الأخرى، التي يعالج أولها الأمثال في ذلك العصر معالجة لغوية وتاريخية، مع التعرض لبحث المدى الذي يمكن أن نثق فيه بتلك الأمثال، وهل هي فعلاً قيلت في ذلك العصر أَوْلاً.

وقد إستمددتُ الأمثال التي أوردتُها في هذا الفصل من [١] ، كما يعالج ثانيها ما يسمَّى بـ(سجع الكُهّان)، وهي الأقوال التي كان الكهّان العرب قبل الإسلام يتلفظون بها إذا ما جاء أحد لإستشارتهم في رُؤْيَا رآها وأراد تعبيرها، أو خصومةٍ يبغي وَضْع حَدٍّ لها، أو منافسةٍ بينه وبين شخص آخر حول مفاخرهما الفردية والقبلية يراد حسمها، إلخ.

وهي أقوال كان الكهان [٢] يتعمَّدون أن تكون مسجوعة وغامضة بحيث تقبل أكثر من معنى على ما سوف يأتي بيانه تفصيلاً فيما بعد، وإن كنتُ قد شككتُ في كثير منها لأسبابٍ ارتأيتها حسبما سيرى القراء في حينه.

وثالث تلك الفصول مخصَّص للخطابة الجاهلية ونصوصها التي وصلتنا، والمقاييس التي يمكننا التعويل عليها في فرز صحيحها من زائفها.

كما رجعتُ بطبيعة الحال إلى ما استطعتُ الرجوع إليه من الكتب التي سبقتني إلى معالجة هذه القضايا، وناقشتُ ما جاء فيها، وقلّبته على وجوهه المختلفة حتى إنتهيت إلى الرأي الذي إطمأننت إليه، وحاولت أثناء ذلك أن أضيف شيئاً جديداً حتى لو كان هذا الجديد هو الزاويةَ التي أنظر منها إلى القضية رَهْن المعالجة، أو النكهةَ التي أعرضها بها.

---

(١) كتاب «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش).

(٢) الكُهّان العرب هم طائفة من رجال الدين كانوا يقومون على سِدانة معابد الأوثان في الجاهلية، وكان العرب الوثنيون يلجأون إليهم في حسم ما ينشأ بينهم من منافرات أو خلافات قبلية أو أسرية أو فردية، أو تأويل ما يقع لهم في نومهم من رُؤًى تحتاج إلى تعبير، أو مساعدتهم على معرفة ما يخبئه الغيب من أحداث أو أشياء...

وأرجو أن يكون الفصل الأول من هذه الفصول الأربعة شيئاً جديداً فعلاً، أو على الأقل لم يسبق لأحد أن عرض ما جاء فيه على هذا النحو.

وهذه الفصول أضعها بين يدي القارئ راجيًا من الله تعالى أن تكون ذات نفع للباحثين في الأدب الجاهلي من عرب ومستعربين، لأن العرب أصبحوا عراب لا يعرفون العربـا.. وأن تسد ثغرة في دراسة النثر العربي قبل الإسلام والأوضاع الإجتماعية والدينية في ذلك العصر.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

الباحث والمحقق

الشيخ عباس أمين حرب العاملي

الفصل الأول

المجتمع الجاهلي في القرآن.

صورة المجتمع الجاهلي في القرآن

كان عرب الجاهلية في عمومهم يعبدون آلهة متعددة، وكانوا لا يتصورون أن يكون الإله واحداً، وعندما جاءهم الرسول الكريم بالتوحيد لقي منهم التكذيب والعنت الشديد، وأخذ الأمرُ منه زمناً طويلاً حتى اقتنعوا أخيراً بما جاءهم به.

بل إنه، بعد أن أنفق في الدعوة بمكة ثلاث عشرة سنة بذل فيها كل جهد ممكن وغير ممكن وتعب تعبّاً بالغاً، لم يؤمن به إلا القليلون مما أضطره هو ومن آمن معه من أهل مكة إلى الهجرة إلى يثرب، وعندئذ تغير وجه المسيرة الدعوية، وانتهى الأمر بأن أسلمت الجزيرة العربية كلها لا مكة فحسب.

وكانوا في بداءة الأمر يستغربون منه، سلام الله عليه، أن يهاجم الأوثان ويغضبون لذلك أعنف الغضب، بل لقد فكر مشركون مكة في قتله أو في حبسه لولا أن نبهه الله عز وجل وأمره بترك موطنه والنزوح إلى بلد جديد يكون فيه مصير الدعوة الجديدة أكثر توفيقاً، قال تعالى: ومما نزل من الوحي في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ

الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[١]

ومما نزل من الوحي في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[٢].

وسبب نزول هاتين الآيتين، على ما ترويه كتب أسباب النزول والتفاسير، أنه لما أسلم الخليفة عمر شَقَّ ذلك على قريش فأَتَوْا شيخ البطحاء أبا طالب وقالوا:

أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك.

فاسْتَحْضَرَ أبو طالب رسولَ الله ﷺ وقال: هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تَمِلْ كل الميل عليهم.

فقال رسول الله ﷺ: ماذا يسألونني ؟

فقالوا: أرفضنا وأرفض ذِكْر آلهتنا (أي أتركنا ولا تتعرض لنا ولا لها)، ونَدَعك وإلهك.

فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم، أَمُعْطِيَّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتَدِين لكم بها العجم ؟

فقالوا: نَعَمْ، وعَشْراً.

فقال: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا .

---

(١) ص الآية ٥ / ٦.

(٢) ص الآية ٥ / ٦.

فقاموا وقالوا: «**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!**».

وأنطلق أشراف قريش من مجلس شيخ البطحاء أبي طالب بعدما بكَّتهم رسول الله ﷺ قائلين بعضهم لبعض:

أصبروا وأثبتوا على عبادة آلهتكم، فإن مكالمته لا تنفعكم.

إن هذا الأمر لَشَيْءٌ من ريب الزمان يراد بنا فلا مردّ له، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيءٌ يريده كل أحد، أو إن دينكم لشيءٌ يُطْلَب ليؤخذ منكم. ما سمعنا بالذي يقوله في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، أو في ملةٍ عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثلِّثون.

ما هذا إلا كذبٌ أختلقه محمد..

وهناك خبر آخر يبين لنا مدى تمسك الكفار بأوثانهم وكراهيتهم أن يسمعوا فيها شيئاً يخالف أعتقاداتهم بشأنها.

وخلاصته، كما جاء عند الواحدي في (أسباب النزول)، أن «**خمسة نفر: عبد الله بن أبي أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أئْتِ بقرآن ليس فيه تَرْك عبادة اللات والعُزَّى**».

وجاء أيضاً في ذلك الكتاب ذاته أن: «**وفد ثقيف أَتَوْا رسولَ الله ﷺ فسألوا شططاً وقالوا: متِّعْنا باللات سَنَةً، وحَرِّمْ وأدينا كما حَرَّمْتَ مكة: شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله ﷺ**».

وقد تتالت الآيات التي تنبههم إلى سخف هذا اللون من التفكير والاعتقاد،

لكنّ تشبُّثهم بما في رؤوسهم كان عنيفاً، وهذا يفسر التكرار الكثير لدعوة التوحيد في القرآن الكريم والحملة على الشرك.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[١].

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢] ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[٣] ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[٤] ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٥].

وقد كانوا مع ذلك يؤمنون بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وسخَّر الشمس والقمر ونزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها:

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٦].

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) الأنعام الآية ١٥١.
(٢) يونس الآية ١٨.
(٣) مريم الآية ٨١
(٤) الفرقان الآية ٣
(٥) الذاريات الآية ٥١
(٦) العنكبوت الآية ٦١

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[١].

ومع ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ* وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٣].

إذ كانوا يعتقدون أنهم شفعاؤهم عنده سبحانه تعالى وأنهم هم الذين يقرّبونهم إلى الله زُلْفَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٤].

قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٥].

وكان القرآن الكريم ينبههم دائماً أن أولئك الآلهة المزعومين لا يملكون لهم شيئاً من نفع أو ضر، وأن الشفاعة إنما هي لله وحده، ليس للأوثان منها أي حظ أو نصيب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ

---

(١) الزخرف الآية ٩

(٢) الصافات الآية ٣٥

(٣) الزمر الآية٤٣/ ٤٥

(٤) الزمر الآية٤٣/ ٤٥

(٥) الزمر الآية ٣

فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[١].

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[٣].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾[٤].

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٥].

وكان من أوثانهم اللات والعُزَّى ومناة، وقد تهكم القرآن الكريم على شركهم وعقليتهم المتخلفة التي تسوِّل لهم أن هذه الأوثان هي بنات الله.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ۝ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾[٦].

(١) الأنعام الآية ٩٣ / ٩٤
(٢) يونس الآية ١٨
(٣) الفرقان الآية ٣
(٤) الروم الآية ١٢ - ١٣
(٥) الزُّمَر الآية ٤٣
(٦) النجم الآية ١٩ - ٢١

من هم الآت والعزى ومناة:

وتناول المفسرون اللاَّت والعُزَّى ومناة فقالوا:

إن اللات كانت لثقيف بالطائف (وقيل: بنخلة) تعبدها قريش، وأوردوا ما زعمه الزاعمون من أنها سُمِّيَتْ باسم رجل كان يَلُتّ عندها السمن بالسَّويق بالطائف ويُطْعِمه الحاجّ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثناً.

أما العُزَّى فكانت لغطفان، وهي شجرةُ سَمُرَةٍ، وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ إليها بعد الفتح عدد من الجند فقطعوها، فخرجت منها، كما تقول بعض الروايات، شيطانة منشورة الشعر تصيح:

يا ويلاه، وهي واضعة يدها على رأسها، فجعل الجند يضربوها بالسيف حتى قتلوها، ورجعوا فأخبروا رسولَ الله ﷺ.

فقال ﷺ: تلك العُزّى، ولن تُعْبَد أبداً [١].

وأما مَنَاة: فصخرة كانت لُهَذْيل وخُزَاعة.

عن عبد الله بن ابن عباس ﷺ قال: أنها كانت لثقيف، وكأنها سُمِّيَتْ: (مناة) لأنّ دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها، أي تُرَاق [٢].

ويذكر المؤرخون أن: الأنصار كانوا يحجّون لمناة، وكانت مناة حَذْوَ قُدَيْد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة [٣].

❀ ❀ ❀

(١) بحار الأنوار ج٥٤ ص١٦٦

(٢) الكافي ج٢ ص٣٢٦

(٣) أسباب النزول ج١ ص٣٧٧ - الواحدي.

من هم إساف ونائلة:

وكانت هناك أوثان أخرى ذكرت في كتاب أسبابُ النزول أثنين منها هما إساف ونائلة، اللذان تقول الروايات إنهما كانا على الصفا والمروة على الترتيب.

يقول الواحدي: كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: إساف.

وعلى المروة صنم على صورة امرأة تُدْعَى: نائلة.

فزعم أهل الكتاب أنهما زَنَيَا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ووضعهما على الصفا والمروة ليُعْتَبَر بهما.

فلما طالت المدة عُبِدَا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مَسَحوا الوَثَنَيْن.

وكان المشركون يقولون إنّ هذه الأصنام هي بنات الله، وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله تعالى رغم نفورهم من البنات ووأدهم لهن، فقيل لهم: ألكُمُ الذَّكرُ ولهُ الأُنثى ؟.

إذ كانوا، كما قلنا، يكرهون خِلْفَة الإناث، فأراد الله أن يَلْفِتهم إلى سخافة تفكيرهم وحُمْق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتي يكرهونهن بل يقتلونهن أحيانا، ثم يختصون أنفسهم بالذُّكْران ! [١].

(١) أسباب النزول ج١ ص٣٧٧ - الواحدي.

الجن والملائكة:

على أن هذه الأصنام ليست هي وحدها بنات الله وشركاءه، بل هناك الجن والملائكة أيضاً كما يزعمون.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[١].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾[٣]. ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[٤].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً

---

(١) الأنعام الآية ١٠٠

(٢) الأنبياء الآية ٢٦- ٢٨

(٣) سبأ الآية ٤٠- ٤١

(٤) الصافات الآية ١٤٩- ١٥٨

ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾[3].

وقيل إن المقصود في آية (الأنعام) ليس الجن بل الملائكة، الذين عبدوهم قائلين إنهم بنات الله، وقد سماهم القرآن: (جِنًّا) لاجتنانهم (أي لاختفائهم) تحقيراً لشأنهم.

وقيل: بل المقصود بـ (الجن) الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو لأنهم كانوا يقولون إن الله خالق الخير وكلّ ما هو نافع، والشيطان خالق الشر وكلّ ما هو ضارّ.

وبقريب من هذا فسَّر ابن الكلبي النص القرآني، إذ قال حسبما نقل الواحدي: نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدوابّ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب.

---

(١) الزخرف الآية ١٥ - ١٩

(٢) الطور الآية ٣٩

(٣) النجم الآية ٢٧

وقد حاول الزمخشري، في تفسيره لآيات (الصافات)، أن يسوِّغ تسمية الملائكة: (جِنًّا) بقوله: إن جنس الملائكة والشياطين واحد، وهو جنس الجن.

ولكنّ مَنْ خَبُثَ من الجن ومَرَد وكان شرّاً كله فهو شيطان، ومن طَهُرَ منهم ونَسُكَ وكان خيراً كله فهو مَلَك، فذَكَرَهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم.

أقول: أن الجن هنا إنما هم الجن الذين نعرفهم لا الملائكة، وليس هناك أي دليل على أن الجن في هذه الآية أو في أي موضع آخر من القرآن الكريم هم الملائكة، وإن في القول بذلك لَخَلْطًا بين الألفاظ والمفاهيم يفسد تفسير القرآن إفساداً، ثم لماذا يحقِّر القرآن الملائكة، وهم عباد مُكْرَمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون ولا يعرفون معنى الاستكبار حسبما وصفهم الله سبحانه في الآية ٥٠ من سورة (النحل) والآيتين ٢٦- ٢٧ من سورة (الأنبياء)، ولا ذنب لهم في أن العرب كانوا يشركونهم بالله ؟

كما أن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[1].

هو أكبر دليل على أن الجن شيء، والملائكة شيء آخر، فها هم أولاء الملائكة تنكر أن يكون المشركون قد عبدوهم، وتؤكد في الوقت ذاته أنهم إنما كانوا يعبدون الجن، بما يعني أن كلا منهما فريق مختلف تماماً عن الفريق الآخر.. وليس بعد قول لله قول!

---

(١) سبأ الآية ٤٠_٤١

ثم إن الجن مكلَّفون، أما الملائكة فهم لا يعصون الله في شيء، مما يدل على أنهم غير داخلين في التكليف، وإلا لكان منهم المطيعون والعصاة، فضلاً عن أن الجن مخلوقون من نار حسبما صرَّح القرآن الكريم، والملائكة ليسوا كذلك.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أنهم أفْتَرَوْا بجهلٍ فاحشٍ أن له سبحانه وتعالى بنين وبنات.

فقالت اليهود: عُزَيْرٌ ابن الله.

وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

وقالت العرب: الملائكة بنات الله.

وكان (بنو مليح يعبدون الملائكة)، كما جاء على لسان ابن الزِّبَعْرَى في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

وكان الجن في نظرهم يعلمون الغيب، ولهذا حكى القرآن الكريم قصتهم مع النبي سليمان عليه السلام وكيف أنهم ظلوا يعملون في السخرة تحت إمرته حتى بعد أن مات، إذ كانوا يَرَوْنَه مستنداً بذقنه إلى العصا فيحسبون أنه لا يزال حياً، إلى أن أكلت النمل العصا فخرّ على الأرض.

فعندئذ، وعندئذ فقط، عرفوا أنه قد مات، ولو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا يعملون ويقاسون في تلك السخرة العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ

﴿المُهِين﴾[1].

❀ ❀ ❀

الموت ويوم الحساب:

ولم يكن جمهور العرب يؤمنون بالآخرة، فلا بعث عندهم ولا حساب، وليس إلا الدنيا، التي إذا ما أنتهت فقد انتهى كل شيء بالنسبة للإنسان، وكانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون مَلَك الموت وقَبْضَ الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثةٍ تَحْدُث إلى الدهر والزمان، فالدهر يُفْنِي ولا يعيد من يُفْنِيه.

وكانوا يجادلون النبي في ذلك مجادلة لا تنتهى، محتجين بأنه من غير الممكن أن يعود الإنسان إلى الحياة كرة أخرى بعد أن يصبح عظاماً ورُفَاتاً، وإلا فأين آباؤهم الأولون ؟

ولماذا لم يرجعوا إلى الحياة من قبل ؟

وإذا كانت هناك آخرة فلماذا لا تأتى ؟

وإن كثرة الآيات التي تتناول هذا الموضوع وتعرض جدالهم وسَخَرهم بما كانوا يسمعون من الآيات القرآنية التي تتحدث عن البعث لدليل على أن نكرانهم كان من القوة والحدة بمكان.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا

---

(١) سبأ الآية ١٤

قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[١].

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[٢].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[٣].

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[٤].

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[٥].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾[٦].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ

---

(١) الإسراء الآية ٤٩ / ٥١

(٢) مريم الآية ٦٦

(٣) سورة الحج الآيات ٥ - ٧

(٤) سورة النمل الآيات ٨٢- ٨٣

(٥) سورة الفرقان آية ١١

(٦) سورة السجدة آية ١٠

عَالِمَ الغَيْبِ لا يَعزُبُ عَنهُ مِثقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[١].

قال تعالى: ﴿أَبِذَا مِتنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَبِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٥٣﴾ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلاَ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَ حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَ الدَّهرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلمٍ إِنْ هُمْ إِلاَ يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَ أَنْ قَالُوا ائتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٤].

قال تعالى: ﴿أَبِذَا مِتنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجعٌ بَعِيدٌ ﴾.

قال تعالى: ﴿قُتِلَ الخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾[٥].

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَبِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَبِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلكَ إِذاً كَرَّةٍ خَاسِرَةٍ ﴾[٦].

---

(١) سورة سبأ آية ٣

(٢) سورة الصافات الآيات ١٦ - ١٧

(٣) سورة الدخان الآيات ٣٤- ٣٦

(٤) سورة الجاثية الآيات ٢٤-٢٥

(٥) سورة التغابن آية ٧

(٦) سورة النازعات الآيات ١٠-١٢

النبي وصراعه مع الكفار:

ومما رُوِيَ عن الكفار في هذا المجال أن أبي بن خلف أتى رسول الله ﷺ بعظمٍ بالٍ يفتّته بيده، وقال: أترى الله يُحْيِي هذا بعدما رُمّ ؟

فقال ﷺ: نَعَمْ، ويبعثك ويدخلك النار.

كما رُوِيَ أن عُتْبَة وشَيْبَة وأبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا البَخْتَرِيّ والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: أبعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا به، فبعثوا إليه:

إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك.

فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا في أمره بَدَاء (أي غيروا موقفهم منه)، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نَعْلَم رجلاً من العرب أَدْخَلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدين وسَفَّهْتَ الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سَوَّدْناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا ملَّكْناك علينا، وإن كان هذا الرَّئِيُّ الذي يأتيك تراه قد غلب عليك (وكانوا يسمّون التابع من الجن: الرَّئِيّ) بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منه أو نُعْذَر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون. ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم

رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلَّغْتُكم رسالة ربي ونصحتُ لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أَصْبِر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم.

قالوا له: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منا ما عرضْنا فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أَضْيَق بلاداً ولا أقلّ مالاً ولا أشدّ عيشا منا، سَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك، فلْيُسَيِّرْ عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويُجْرِ فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يُبْعَث لنا منهم قُصَيّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صَدُوقاً، فنسألهم عما تقول: حَقٌّ هو ؟

فإن صنعتَ ما سألناك صدَّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول [١].

ووجه الشاهد في الخبر أنهم تحدَّوْه، ضمن ما تحدَّوْه به، أن يأتي لهم بمن مات من آبائهم، وعلى رأسهم جَدّه قُصَي بن كلاب، إذ كانوا، كما قلنا، يَرَوْنَ استحالة عودة الميت إلى الحياة، أما من يقول بغير هذا فعليه أن يُثْبِت ما يقول ويعيد الموتى إلى الدنيا كرة أخرى !

وثمة خبر في (أسباب النزول) للواحدي يفسّر سبب نزول قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، وفيه أنه كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دَيْن فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلّم به: والذي أرجوه بعد الموت.

---

(١) الحدائق النضرة ج١ ص٣٥٥ - البحراني

فقال المشرك: وإنك لتزعم إنك لَتُبْعَث بعد الموت ؟

فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت.. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وكانوا يتهكمون بما ينزل به القرآن في أوصاف الجنة، كالذي يُرْوَى عن أبي جهل من أنه: لما ذكر الله تعالى الزَّقُّوم خُوِّف به هذا الحي من قريش، فقال أبو جهل:

هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد...؟

قالوا: لا.

قال أبي جهل: الثَّريد بالزبد! أمَا والله لئن أمكننا منها لنَتَزَقَّمَنَّها تَزَقُّمًا.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾.

ومن هذا الواحدي أيضاً ما جاء في بعض الروايات من أن: خَبّاب بن الأَرَتّ كان قَيْناً، وكان يعمل للعاص بن وائل السَّهْمِيّ، وكان العاص يؤخر حقه، فأتاه يتقاضاه، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أَقْضِيك.

فقال: لستُ بمفارقك حتى تقضيني.

فقال العاص: يا خباب، مالك ؟ ما كنتَ هكذا ! وإِنْ كنتَ لَتُحْسِن الطلب.

فقال خباب: ذاك أني كنت على دينك، فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لدينك.

قال: أولستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضةً وحريرًا ؟

قال خَبّاب: بلى.

قال: فأَخِّرْني حتى أقضيك في الجنة، إستهزاءً.

فوالله لئن كان ما تقول حقًّا، إني لأفضل فيها نصيبًا منك.

وكان هذا الاستهزاء يتكرر كلما نزل شيء من القرآن الكريم في تعداد نِعَم الجنة، ومن ذلك ما ورد في النص التالي لدى الواحدي:

كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لَنَدْخُلَنَّها قبلهم، ولَيَكُونَنَّ لنا فيها أكثر مما لهم.

فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا﴾.

❀ ❀ ❀

العبادات الجاهلية:

فإذا انتقلنا إلى العبادات الجاهلية وجدنا مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

أي أنهم كانوا يتجهون بالدعاء لله، وقد سلف القول إنهم كانوا يؤمنون بوجوده سبحانه، وإن عَزَّ على عقولهم المغلقة أن تفهم أن الله بطبيعته لا يمكن أن يكون إلا إلها واحداً، بل كانوا يشركون به آلهة أخرى.

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٩

ومعنى الاستفتاح هو الدعاء إلى الله أن يظهر لهم الحق من الباطل.

وقد وردت أكثر من رواية في ذلك في تفسير الطبرى فقيل:

كان المشركون حين خرجوا إلى النبيّ ﷺ من مكة (أي في غزوة بدر) أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا:

اللهمّ أنصر أَعَزّ الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين.

فقال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾

يقول: نَصَرْتُ ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

وقيل: أستفتح أبو جهل فقال: اللهمّ، أُينا (يعني محمداً ونفسه) كان أَفْجَرَ لك اللهمّ وأَقْطَعَ للرَّحِم فأَحِنْهُ ﴿أي أَهْلِكْه﴾ اليوم.

كما نقرأ في ذات السورة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١).

وقد جاء في تفسير الطبري: قال رجل من بني عبد الدار يقال له:

النضر بن كِلْدَة: اللّهُمّ إنْ كانَ هَذَا هُوَ الحَقّ مِنْ عِنْدِكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السّماءِ أو ائْتِنا بِعَذَابٍ أليم.

فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾.

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٣٢-٣٣

قال عطاء: لقد نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله.

أما في تفسير الآية الثانية فقد أورد فيها، ضمن ما أورد، قول من قال:

وما كان الله ليعذّب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم يا محمداً حتى أُخْرِجك من بينهم، وَما كانَ اللّهُ مُعَذّبَهُمْ وهؤلاء المشركون يقولون: يا ربّ غفرانك وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار بالقول...

وقوله: ﴿وَما لَهُمْ أَلاّ يُعَذّبَهُمُ اللّهُ﴾ ؟ (أي) في الآخرة.

أي أنهم، رغم شركهم، كانوا يدعون الله بما يريدون على غباء فيهم وعناد وإنغلاق ذهن وقلب !

كما أنهم، رغم شركهم، كانوا يستغفرون الله كما جاء في بعض الأقوال !

ومن عباداتهم كذلك ما ورد في قول رب العزة: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١).

وتفسيره: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ اللهِ الّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾.

فأُمِروا بإرتداء الملابس.

كانت قريش يعارضون النبيّ الكريم ﷺ في الطواف يستهزئون به، يصفرون به ويصفقون.

كانوا ينفخون في أيديهم، والتصدية: التصفيق.

كما أن في القرآن آية تنهى عن السجود للشمس أو القمر، مما يدل على أن هناك من كانوا يسجدون لهما.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٥

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١).

ولعل القارئ قد تنبه لما جاء في كلام الطبري من أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة، وإن كنت أتصور أن يكون بعضهم فقط هم الذين يفعلون ذلك لا كلهم.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

يقول الطبري ما زُبْدَته: أنه، جلّ ثناؤه، يبين للجهلة من العرب الذين كانوا يتعَرَّوْن أن لِباس التّقوَى هو الحياء.

---

(١) سورة فُصِّلَتْ الآية ٣٧

(٢) سورة الأعراف الآيات ٢٦- ٣٢

وقد ابتدأ سبحانه الخبر عن إنزاله اللباس الذي يواري سَوْآتنا والرِّيَاش توبيخاً للمشركين الذين كانوا يتجرّدون في حال طوافهم بالبيت، ويأمرهم بأخذ ثيابهم والاستتار بها في كلّ حال مع الإيمان به واتباع طاعته، إذ كانوا يطوفون بالبيت عُراةً متحججين بقولهم: (نطوف كما ولدتنا أمّهاتنا)، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسْعة أو الشيء فتقول(١):

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلّه فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلّهُ

فعُذِلوا على ما أَتَوْا من قَبيح فعلهم وعُوتبوا عليه، فكان جوابهم:

وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثلما كانوا يفعلون، ونقتدي بَهْديهم ونستنّ بسُنّتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه.

فيقول الله جلّ ذكره لرسوله محمد ﷺ: قل يا محمد لهم إن الله لا يأمر بالفحشاء، أى لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومَساويها. أتقولون، أيها الناس، على الله ما لا تعلمون ؟

أَتَرْوُون على الله أنه أمركم بالتعرّي والتجرّد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك ؟

لقد كانوا يطوفون عراة: الرجال بالنهار، والنساء بالليل، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس.

وكانت العرب تطوف بالبيت عراةً إلا الحُمْس: قريش وأحلافهم.

وكانت قريش ومَنْ وَلَدَتْه قريش، وهم الذين كانوا يُسَمَّوْن في الجاهلية: (الحُمْس)، يقولون: لا نخرج من الحَرَم.

---

(١) الطبري ج٢

فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعَرَفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم والإفاضة من عَرَفات، وهي التي كان يُفيض منها سائر الناس غير الحُمْس.

وعن ابن عباس ﷺ: كانت قريش ومن كان على دينها، وهم الحُمْس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن قَطِين الله.

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحِلّ مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، فيَحِلّ لهم ما يحلّ لهم، ويَحْرُم عليهم ما يَحْرُم عليهم.

وكانت كِنَانة وخُزَاعة قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن، حتى قالوا:

لا ينبغي للحُمْس أن يَأْقِطوا الأَقِط، ولا يَسْلأوا السَّمْن وهم حُرُم، ولا يدخلوا بيتا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الجلد طَوَال إحرامهم.

ثم غالَوْا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحلّ في الحَرَم إذا جاءوا حُجّاجاً أو عُمّاراً، ولا يطوفوا بالبيت إذا قَدِمُوا أوّل طوافهم إلا في ثياب الحُمْس، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة.

فحَمَلُوا العربَ على ذلك، وكان مَنْ سواهم يقفون بعرفة، فأمرهم الله بالوقوف معهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وكان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٩

يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فكانوا يذكرون آباءهم في الحج، فيقول بعضهم: كان أبي يطعم الطعام.

ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف.

ويقول بعضهم: كان أبي جَزّ نواصي بني فلان.

فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، فنزل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ (١).

وكان الأنصار في الجاهلية إذا أَهَلّ أحدهم بحجّ أو عُمْرة لا يدخل دارا من بابها إلا أن يتسوّر حائطاً، وأسلموا وهم كذلك.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢).

ونهاهم عن صنيعهم ذاك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها.

فلما حجّ رسول الله ﷺ حجّة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك، وهو مسلم. فلما بلغ الرسول الأعظم باب البيت أحتبس الرجلُ خلفه وأبى أن يدخل قائلاً: يا رسول الله إني أَحْمَس.

يقصد أنه مُحْرِم، وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يُسَمَّوْن: الحُمْس.

فقال رسول الله ﷺ: وأنا أيضاً أَحْمَسُ (أي أنه ﷺ من قريش)، فأدْخُلْ، فدخل الرجل.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٩

تعاملات أهل الجاهلية:

وكان في تعاملات أهل الجاهلية بغي وطاعة للشيطان، فكان الحَيّ مثلاً إذا كان فيهم عُدّة ومَنَعة، فقَتَل عبدُ قوم آخرين عبداً لهم، قالوا:

لا نَقْتُل به إلا حُرًّا.. تعزُّزاً لفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت امرأةُ قوم آخرين امرأةً لهم، قالوا: لا نَقْتُل بها إلا رجلاً.

فأنزل الله هذه الآية يخبرهم أن العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فنهاهم عن البغي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

وكان اليتامى يُظْلَمون ولا يُرْحَمون وتُؤْكَل حقوقهم، وقد نزلت فيهم آيات متعددة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨

(٢) سورة الماعون الآيات ١ - ٣

(٣) سورة البلد الآيات ١١ - ١٦

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١) .

قال تعالى: ﴿كَلاَ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ (٢) .

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (٣) .

قال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَ تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴿٤﴾ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ (٤) .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧

(٢) سورة الفجر الآية ١٧ – ٢٠

(٣) سورة الأنعام الآية ١٥٢

(٤) سورة النساء الآيات ٢ – ٦

(٥) سورة النساء الآية ١٠

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١).

وبالنسبة للآيات التي ذكرت في صدر سورة النساء يقول ابن عطية في - كتاب المحرَّر الوجيز - إنها في أوصياء الأيتام، والمراد ما كان بعضهم يفعله من تبديل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، وإن أولئك اليتامى كانوا ممنوعين من الميراث ومحجورين.

والآية تَنصُّ في النهي عن قصد كل ما يتعلق بمال اليتيم بالأكل والتموّل على جميع وجوهه.

وقال ابن عباس ﷺ: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال وليّاتهم فيريدون أن يبخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، فقيل لهم:

أَقْسِطوا (أي أعدلوا) في مهورهن، فمن خاف ألا يُقْسِط فلْيتزوجْ ما طاب له من الأجنبيات اللواتي يكايسن في حقوقهن (أي يدافعن عنها ويناضلن دونها) (٢).

ويقول الثعالبي، في تفسيره ان النهي في سورة النساء خاصّ:(ما كانت العرب تفعله من ضَمّ اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقه من المهر ومن عَضْل الدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل).

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٧

(٢) بحار الأنوار ج٩٨ ص٤٣٦

وفي (أكل التراث) المنهى عنه في سورة الفجر يقول:

إنهم كانوا لا يورِّثون النساء ولا صغار الأولاد، إنما كان يأخذ المالَ من يقاتل ويحمي الحَوْزَة [١].

وقد أورد ابن عطية حديثًا للنبي ﷺ عما رآه ليلة الإسراء جاء فيه:

رأيت أقواماً لهم مَشَافِرُ كمشافر الإبل، وقد وُكِّلَ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يَجْعَل في أفواههم صخراً من نار تخرج من أسافلهم.

قلت: يا جبريل، من هؤلاء ؟

قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً.

وأورد الزمخشري ما رُوِيَ من: أنه يُبْعَث آكِلُ مال اليتيم يوم القيامة والدُّخَان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا [٢].

وكان ثَمَّ ظلم شنيع يقع على الصغار في ذلك المجتمع الوثني، وهو ما كانت تمارسه بعض القبائل من وأد البنات، تلك العادة الوحشية التي ندَّد بها القرآن الكريم مراراً ونهى عنها وشدد في النهي تشديداً عظيماً:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [٣].

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [٤].

---

(١) تفسير الجواهر الحسان في تفسير القرآن - الثعلبي.

(٢) تفسير الزمخشري.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٣٧

(٤) سورة الأنعام الآية ١٥١

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (١).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢).

❧ ❧ ❧

الوأد والعادات المتوحشة:

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (٣).

وفي هذه العادة المتوحشة يقول البغوي، عند تفسير الآيات ٥٨- ٥٩ من سورة النحل، إن: مُضَرَ وخُزَاعَةَ وتَميماً كانوا يدفنون البنات أحياء خوفاً من الفقر عليهن وطَمَعِ غير الأَكْفَاء فيهن.

وكان الرجل من العرب إذا وُلِدَتْ له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جُبَّةً من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسيةً قال لأمها: (زَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها)، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فإذا بلغ بها البئر قال لها: أنظري إلى هذه البئر.

فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣١

(٢) سورة النحل/ ٥٨- ٥٩

(٣) سورة الزخرف الآيات ١٦- ١٨.

البئر بالأرض.

فذلك قوله تعالى: (أيمسكه على هُونٍ أم يَدُسّه في التراب) ؟.

وكان صَعْصَعَة عَمُّ الشاعر الفرزدق (بل جَدّه في الواقع) إذا أحس بشيء من ذلك وجَّه إلى والد البنت إبلاً، يُحْيِيها بذلك.

فقال الشاعر الفرزدق يفتخر به [1]:

وعَمِّي الذي مَنَعَ الوائداتِ فأحيا الوئيدَ فلم تُوأَد

❧ ❧ ❧

المال المغصوب والإرث:

وفي الآية السابعة من سورة النساء يطالعنا قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾.

وسبب نزولها أن من العرب من لم يكن يورِّث النساء ويقول: (لا يُوَرَّث إلا من طاعَنَ بالرمح وقاتَلَ بالسيف). فنزلت هذه الآية.

ومن ذلك أن أم كحلة مات عنها زوجها أَوْس بن سُوَيْد وترك لها بنتا، فذهب عَمّ بنيها إلى ألاّ ترث، فذهبت إلى النبي ﷺ، فقال العَمّ:

هي، يا رسول الله، لا تقاتل ولا تحمل كَلاًّ ويُكْسَب عليها ولا تَكْسِب.

ولا يقف ظلم النساء لدى عرب الجاهلية عند هذا الحد، فقد ذكرت الآيات التالية من نفس السورة ألواناً أخرى من الغبن الذي كُنّ يتعرَّضْن له

(١) ديوان الفرزدق ص٢٧٦ - طبعة بغداد ١٩٧٧

على أيدي الرجال.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ۝ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (١).

وقد علّق الزمخشري على هذا قائلاً: كانوا يَبْلُون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم، فزُجروا عن ذلك: كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال:

أنا أحقّ بها من كل أحد.

فقيل: لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا.

أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تُحَاز المواريث، وهن كارهات لذلك أو مُكْرَهات.

وقيل: كان يمسكها حتى تموت.

فقيل: لا يحلّ لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع.

فقيل: ولا تَعْضُلوهنّ لتَذْهَبوا ببعض ما آتيتموهن. والعَضْل: الحبس والتضييق.

---

(١) سورة النساء الآيات ١٩ - ٢١.

قال تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، وهي النشوز وشَكَاسة الخُلُق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة، أي إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، فقد عُذِرْتم في طلب الخلع.. فإن فعلتْ حَلَّ لزوجها أن يسألها الخُلْع.. وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهو النَّصَفَة في المبيت والنفقة والإجمالُ في القول:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾.

الجمع بين الأختين في الجاهلية:

وكان الرجل إذا طَمَحَتْ عينه إلى استطراف امرأة بَهَتَ التي تحته ورماها بفاحشة حتى يُلْجِئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها.

فقيل: «**وإن أردتم استبدال زوج**»، وكانوا يَنْكِحون رَوَابَّهم (أي زوجات آبائهم)، وناسٌ منهم يمقتونه من ذَوِي مروءاتهم، ويسمّونه: نكاح المَقْت.

وكان المولود عليه يقال له: المَقْتِيّ.

وفي الطبري عن ابن عباس ﷺ: كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين [١].

وفي الحديث: لم يصبنا عيبٌ من عيوب الجاهلية في نكاحها ومَقْتها [٢].

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٢٥

(٢) سيرة رسول الله ج ١ ص ٣٦٦- لابن هشام.

وبالنسبة لعلاقة الفِرَاش يقول الزمخشري، تعليقاً على قوله تعالى:

﴿وَيَسأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعتَزِلُوا النِّسَاء فِي المَحِيضِ وَلاَ تَقرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾ (١) .

ويضيف الزمخشري قائلاً: إن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فَرْشٍ ولم يساكنوها في بيتٍ كفِعْل اليهود والمجوس.

فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر أعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم.

فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة. فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحُيَّض.

فقال رسول الله ﷺ: إنما أُمِرْتُم أن تعتزلوا مُجَامَعَتَهُنّ إذا حِضْنَ، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفِعْل الأعاجم (٢) .

وكان المجتمع الجاهلي يقوم، فيما يقوم، على نظام الرقيق، وكان الأرقاء يعامَلون بقسوة، فأوصى الإسلام بهم خيراً، ودعا إلى التقرب إلى الله وإحراز الأجر الجزيل بعتقهم.

كما أوَصَّى الحبيب المصطفى بمساعدتهم من أموال الزكاة والكفّارات والصدقات في الافتكاك من الرق إن أرادوا المكاتبة لإعتاق أنفسهم من كسب يدهم، وكذلك مساعدتهم في الزواج والاستعفاف.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٢

(٢) راجع ما رواه الزمخشري في تفسيره ج٢ ص٢١٦ وما بعدها. المقصود من كلام النبي الأكرم - كفعل الأعاجم قبل الشريعة الإسلامية السمحاء (المؤلف العاملي).

ومن رحمته عز وجل بالإماء المستضعفات أنْ أنزل آية تمسح عار البِغَاء وإثمه عن الأَمَة المُكْرَهة على ذلك من قِبَل سيدها القوّاد.

وكان لعبد الله بن أُبـيّ رأسِ الضلال والنفاق أَمَةٌ أَمَرَها فزَنَتْ، فجاءت ببُرْد، فقال لها: أرجعي فـأزْنِـي.

قالت: والله لا أفعل. إنْ يَكُ هذا خيراً فقد استكثرتُ منه، وإن يَكُ شرّا فقد آن لـي أن أَدَعه.

وقد نزل في ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

❀ ❀ ❀

الربا في الجاهلية:

وكان الجاهليون يتعاملون بالرِّبَا، بل بالربا الفاحش الذى لا يرحم، ومن هنا نرى القرآن يصور الربا صورة شديدة البشاعة، ويحمل على المرابين حملة شعواء مناديا بالرحمة والتسامح مع الضعفاء والعاجزين الذين لا يقدرون على تسديد الدين، أو على الأقل إنظارهم والصبر عليهم حتى يمكنهم السداد: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ

(١) سورة النورالآية ٣٢- ٣٣.

تُرِيدُونَ وَجهَ اللّهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُضعِفُونَ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولم يكن عرب الجاهلية هم وحدهم الذين يرابون، بل هناك أيضاً اليهود أساتذة الربا وشياطينه، وقد هاجمهم القرآن الكريم مبيناً كيف أن الله عاقبهم عقاباً شديداً جَرَّاءَ ذلك الاستغلال الإجرامى القاسي في التعامل مع المحتاجين:

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

---

(١) سورة الروم آية ٣٩

(٢) سورة البقرة الآيات ٢٧٥ - ٢٨٠

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [١] .

وحين حرّم الإسلام الربا لم يتسامح فيما كان لا يزال منه قائماً، ورفض للمرابين أن يأخذوا أية فوائد على قروضهم، رغم أنه قد غض البصر عما كان قد سلف منه في الجاهلية قبل مجيئه.

وفى تفسير الطبري: كانت ثقيف قد صالحت النبيّ الكريم على أن ما لهم من رباً على الناس وما كان للناس عليهم من رباً فهو موضوع (أي مُلْغَى).

فلما كان الفتح أستعمل عتّابَ بن أُسَيْد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكانت بنو المغيرة يُرْبُون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير.

فأتاهم بنو عمرو يطلبون رِبَاهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتّاب بن أَسَيْد، فكتب عتّاب إلى رسول الله محمد ﷺ، فنزلت الآية الكريمة:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فكتب بها رسول الله ﷺ إلى عتّاب وقال: «**إِنْ رَضُوا، وَإِلاّ فَآذِنْهُمْ بِحَرْبٍ**» [٢].

وقال رسول الله في خطبته يوم الفتح: «**أَلاَ إِنّ رِبا الجاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ كُلّهُ، وَأَوّلُ رِبًا أَبْتَدِئُ بِهِ رِبَا العَبّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطّلِب**» [٣].

---

(١) سورة النساء الآيات ١٦٠ - ١٦١

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٦

(٣) الكافي ج ٢ ص ٣٢٢

يقول الثعالبي: وكان المَيْسِر، وهو القِمَار، من الآفات التي أبتُلِي بها عرب الجاهلية، وكانوا يتقامرون على الأموال حتى ربما بقي المقمور فقيراً فتَحْدُث من ذلك ضغائن وعداوات.

❀ ❀ ❀

القمار في الجاهلية:

وقد أورد الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه: كان الرجل في الجاهلية يخاطر (أي يقامر) على أهله وماله، فأيهما قَمَرَ صاحبَه (أي غلبه في القمار) ذهب بأهله وماله [١].

ومن هنا نستطيع أن نفهم تشديد التحريم له في قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [٢].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وفي القمار يقول الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه إنهم: كانوا يياسرون (أي يتقامرون) على الجَزُور (وهو الجمل أو الناقة المُعَدّان للذبح)، وإذا أفلج الرجلُ منهم صاحبَه (أي كَسَبَه) نَحَرَه، ثم أقتسموا أعشاراً على عدد القِدَاح (السهام) [٣].

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٩٨

(٢) سورة المائدة آية ٥

(٣) تاريخ الطبري ج٢ ص

وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وجَزُورِ أيْسارٍ دَعَوْتُ إلى النَّدَى ونِياطِ مُقْفِرَةٍ أخافُ ضَلالَهَا

ويزيد الزمخشري الأمر تفصيلاً فيقول: كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام: الفَذّ - التَّوْأم - الرقيب - الحِلْس - النَّافِس - المُسْبِل -المُعَلَّى - المَنِيح - السَّفِيح - الوَغْد.

لكل واحد منها نصيب معلوم من جَزُور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء (وقيل: ثمانية وعشرين)، إلا لثلاثة، وهي المَنِيح والسَّفِيح والوَغْد.

ولبعضهم قال شعراً [1]:

لِيَ في الدنيا سهامٌ ليس فيهنّ رَبِيحُ وأساميهنّ وَغْدٌ وسَفِيحُ

ومَنِيحُ للفَذّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرَّقِيب ثلاثة، وللحِلْس أربعة، وللنَّافِس خمسة، وللمُسْبِل ستة، وللمُعَلَّى سبعة.

يجعلونها في الرِّبَابة، وهي خريطة، ويضعونها على يَدَيْ عَدْل، ثم يجلجلها (أي يحركها) ويُدْخِل يده فيُخْرِج بِاسْم رجلٍ رجلٍ قِدْحاً منها.

فمن خرج له قِدْحٌ من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القِدْح.. ومن خرج له قِدْحٌ مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغَرِمَ ثمن الجزور كله.

وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمّون من لم يدخل فيه، ويسمونه: البَرَم.

(١) كشكول العرب ص ٣١١ - د. سلام البغدادي.

القرآن والتحريم:

وفي الآيتين تحريم للأزلام أيضاً، وهي سهامٌ ثلاثةٌ متشابهةٌ كانوا يضعونها في كنانة، ثم يحركونها حتى تختلط ولا يمكن تمييز أحدها عن الآخر، ثم يمد الكاهن يده فيسحب منها واحدا.

فإذا كان هذا السهم مكتوباً عليه: أفعل.

فإن الشخص المُسْتَقْسِم يفعل ما كان ينوي أن يفعله، وإن خرج السهم المكتوب عليه: لا تفعل.

فإنه لا يفعل ما كان يريد، أما إذا كان السهم غير مكتوب عليه شيء، أُعِيد تحريك السهام وبدأت عملية الاستقسام من جديد.

وقد أستبدل الدين الإسلامي الحنيف بهذه الطريقة الوثنية طريقة أخرى تربط الإنسان بربه، وهي: الاستخارة.

ونترك الإمام الطبري يشرح الأمر بقلمه كما كتبه عند تأويله للآية الخامسة من سورة المائدة: ذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو نحو ذلك أجال القِدَاح، وهي الأزلام (أي هَزّ الكنانة بما فيها من سهام)، وكانت قِدَاحاً مكتوباً على بعضها:

نهاني ربي، وعلى بعضها: أمرني ربي.

فإن خرج القِدْح الذي هو مكتوب عليه: أمرني ربي- مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك.

وإن خرج الذي عليه مكتوب: نهاني ربي - كَفَّ عن المضيّ لذلك

وأمسك.

فقيل: «وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأزلام».

لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يَقْسِمْنَ لهم.

ومنه قول الشاعر مفتخراً بترك الاستقسام بها:

ولَمْ أَقْسِمْ فتَرْبُتَني القُسُومُ

وأما (الأزلام) فإن واحدها (زَلَم) ويقال (زُلَم)، وهي القِداح التي وصفنا أمرها..

وهذه الأزلام كانت عند الكهنة، وكانوا هم الذين يقومون بعملية الاستقسام حسبما أورد الطبري عن السُّدِّي.

❀ ❀ ❀

الكيل والميزان:

ومن الملاحظ تكرير القرآن الكريم النهي عن التطفيف في الكيل والميزان وتوعُّده بالعقاب الشديد من يصنع ذلك، وواضح أن العرب كانوا لا يراعون القِسْطَاس المستقيم، وإلا لم يكن القرآن ليتحدث في ذلك الموضوع ويكرر القول فيه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٢).

---

(١) سورةالأنعام آية ١٥٢

(٢) سورو الإسراء آية ٣٥

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[١].

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٢].

وفي تفسير الطبري: عن ابن عباس ﷺ قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة لَيُوفُون الكيل.

قال: وما يمنعهم من أن يوفوا الكيل، وقد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وعن ابن عباس قال: لما قَدِم النبيّ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فأَحْسَنوا الكيل[٣].

أقول: أنني لا أستطيع أن أفهم كيف تكون الآيات الأخيرة قد نزلت في أهل المدينة، والسورة كلها، كما يقول الطبري نفسه في بداية تفسيره لها، سورة مكية!

ثم إن أهل المدينة كانوا مشهورين بدماثة الطبع ولم تُعْرَف عنهم شكاسة في الخلق والمعاملات التجارية كالذي كان مشهوراً عن مكة وأهلها في الجاهلية، علاوة على أن القرآن الكريم إنما كرّر النهي عن الغَبْن في المكاييل والموازين في المرحلة المكية، بخلافه في المرحلة المدنية، التي لم ينزل فيها شيء في ذلك.

---

(١) سورة الرحمن آية ٩

(٢) سورة المطففين الآيات ١-٣

(٣) تفسير الطبري عن عبد الله ابن عباس

ولا ينبغي أن نغفل عن أن المكيين كانوا، في المقام الأول، تجاراً لا زُرّاعاً كاليثربيين.. بل إن الحديث عن شيوع الغش في المعاملات التجارية في بعض الأمم القديمة وتلاعبها في الكيل والميزان، وهي أمة نبي الله شُعَيْب عليه السلام، إنما كان في سور (الأعراف وهود والشعراء)، وهي مما نزل في مكة لا المدينة.

أفترى القرآن إذن كان يستبق الحوادث ويهاجم اليثربيين قبل الميعاد ؟

الذي أراه هو أن المقصودين بالكلام عن الكيل والميزان إنما هم المكيون قبل غيرهم، وإن كنت لا أستبعد سواهم من العرب من هذا الانحراف الخلقي.

وبالمناسبة فإن الواحدي والسيوطي مثلاً في كتابيهما عن (أسباب النزول) يقولان نفس ما قاله الطبري.

أما الطاهر بن عاشور في (تفسير التحرير والتنوير) فيورد أختلاف العلماء في مكية السورة أو مدنيتها، لينتهي إلى أنها مما نزل بين مكة والمدينة.

ثم أضاف قائلاً: وعن القُرَظِيّ: كان بالمدينة تجار يطففون الكيل وكانت بياعاتهم كسبت القمار والملامسة والمناملة والمخاصرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق وقرأها، وكانت عادة فَشَتْ فيهم من زمن الشرك فلم يتفطَّن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مال الناس.. فأريد إيقاظهم لذلك، فكانت مقدمة لإصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويثرب بأنهم الذين سَنُّوا التطفيف.

وما أَنْسَبَ هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها نبي الرحمة لئلا يشهد فيها

منكراً عاماً، فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق وفي المبادلات.

ولكني، رغم هذا، ما زلت أرى أن سورة (المطففين) مكية لأسلوبها وموضوعاتها اللذين يشبهان أسلوب الوحي المكي وموضوعاته، وأقصى ما يمكن أن أفكر فيه هو أن يكون الرسول الأكرم قد قرأها على أهلٍ يثرب مُهَاجَرَه إليهم، فقد قلت إنني لا أستبعد أن يكون من العرب من كان يطفِّف في الكيل والميزان من غير أهل مكة، إلا أن المكيين، في نظري، هم المقصودون أوّلاً وفي الأساس بهذه الآيات.

أيًّا ما يكن الأمر، وهذا هو المهم في الموضوع، فقد كان الجاهليون يتلاعبون في مكاييلهم وموازينهم بما يأباه الخلق الشريف والذكاء التجاري الحصيف كما يصنع كثير من التجار في المجتمعات المتخلفة مما لا نجده في نظيراتها المتقدمة رغم أنها ربما لا تدين بدين سماوي، لكنه الحس التجاري السليم والقانون اليقظ الحريص على سلاسة الحياة وراحة البال حتى ولو لم يكن الحفاظ على القيم الخلقية في حد ذاتها هو المراد ! [1].

ꕥ ꕥ ꕥ

الجاهليون وتحريم الأطعمة:

وبالنسبة للأطعمة كان الجاهليون يحرِّمون البَحِيرَة والسائبة والحامي، وفي ذات الوقت يأكلون المَيْتَة، سواء ماتت ميتة طبيعية أو كانت منخنقة أو

(١) المؤلف الشيخ العاملي.

موقوذة: «**وهي المضروبة ضرباً شديداً حتى تموت، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها**»، أو كانت متردِّية أو منطوحة.

وكانوا يقولون عن الميتة إن الله قتلها، فكيف تكون حراماً، ويكون ما قتله (أي ذبحه) البشر حلالاً ؟

وكانوا يستغربون أن يعلن الرسول الأكرم وأصحابه أنهم يتبعون أمر الله ثم يقولوا مع ذلك إن ما ذبحوه حلال، وما ذبحه الله حرام!

كذلك كانوا يأكلون الدم وما أُهلَّ به لغير الله وما ذُبح على النُّصُب، وسوف يأتي في كلامنا عن الأمثال في العصر الجاهلي إشارة إلى أكلهم الدم.

وفي الطبري قال: أنهم كَانُوا إِذَا أَرَادُوا ذَبْح مَا قَرَّبُوهُ لآلِهَتهِمْ سَمَّوْا اسْم آلِهَتهِمْ الَّتِي قَرَّبُوا ذَلِكَ لَهَا وَجَهَرُوا بِذَلِكَ أَصْوَاتهمْ، فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرهمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ ذَابِح يُسَمِّي أَوْ لَمْ يُسَمِّ، جَهَرَ بِالتَّسْمِيَةِ أَوْ لَمْ يَجْهَر: (مُهِلّ)، فَرَفْعهمْ أَصْوَاتهمْ بِذَلِكَ هُوَ الإِهْلال الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّه تَعَالَى.

كما يقول القرطبي إن ما أُهلَّ به لغير الله هو: ذَبِيحَة الْمَجُوسِيّ وَالْوَثَنِيّ وَالْمُعَطِّل: فَالْوَثَنِيّ يَذْبَح لِلْوَثَنِ، وَالْمَجُوسِيّ لِلنَّارِ، وَالْمُعَطِّل لا يَعْتَقِد شَيْئاً فَيَذْبَح لِنَفْسِهِ.

و (النُّصُب) هي الأَوْثَان مِنْ الْحِجَارَة، وكَانَتْ تُجْمَع فِي الْمَوْضِع مِنْ الأَرْض، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقَرِّبُونَ لَهَا، وَلَيْسَتْ بِأَصْنَام، لأن الصَّنَم يُصَوَّر وَيُنْقَش، وَهَذِهِ حِجَارَة، فَكَانُوا إِذَا ذَبَحُوا نَضَحُوا الدَّم عَلَى مَا أَقْبَلَ مِنْ الْبَيْت وَشَرَّحُوا اللَّحْم وَجَعَلُوهُ عَلَى الْحِجَارَة.

أما البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحامي فكانت النَّاقَة إِذَا وَلَدَتْ أَبْطُنًا خَمْساً أَوْ سَبْعاً شَقُّوا أُذُنهَا وَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَة.

وكَانَ الرَّجُل يَأْخُذ بَعْض مَاله فَيَقُول: هَذِهِ سَائِبَة.

وكَانُوا إِذَا وَلَدَتْ النَّاقَةُ الذَّكَرَ أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَاث، وَإِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْن قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا، فَلا يَأْكُلُونَهُمَا.

فَإِذَا مَاتَ الذَّكَر أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَاث.

وكَانَ الْبَعِير إِذَا وَلَدَ وَوَلَدَ وَلَدُه قَالُوا : قَدْ قَضَى هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِظَهْرِهِ وقَالُوا: هَذَا حَام.

وقيل أيضاً: كانوا إذا نتجت (أي ولدت) الناقة خمسة أَبْطُنٍ إناثا بُحِرَتْ (شُقَّتْ) أذنها فحُرِّمَتْ.

وقيل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذَكَراً بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها.

وقيل: إذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقّوا أذنها وحرّموا ركوبها ودَرّها.

والسائبة: الناقة تُسَيَّب، أو البعير يُسَيَّب نذراً على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلّغه منزله، فلا يُحْبَس عن رعي ولا ماء، ولا يركبه أحد.

وقيل: هي التي تُسَيَّب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها.

وقيل: هي التي تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذَكَر، فعند ذلك لا يُرْكَب ظهرها ولا يُجَزّ وَبَرها ولا يَشْرَب لبنَها إلا ضيف.

والوَصِيلة: قيل: هي الناقة إذا وَلَدَتْ أنثى بعد أنثى.

وقيل هي الشاة: كانت إذا وَلَدَتْ أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذَّكَر لآلهتهم.

وقيل: كانوا إذا ولدت الشاةُ سبعة أَبْطُن نظروا: فإن كان السابع ذكراً ذُبِح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تُرِكَتْ في الغنم، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يُذْبَح لمكانها، وكان لحمها حراماً على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء.

والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يُرْكَب، وكانوا إذا رُكِبَ وَلَدُ الفحل قالوا: حُمِيَ ظهره فلا يُرْكَب، فجاء الإسلام فحرَّم هذا كله.

ومن الأخبار التي وردت عن ذبحهم لآلهتهم ما رُوِيَ عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما من: أن بلالاً لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسَلَحَ عليها، وكان عبداً لعبد الله بن جُدْعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائةً من الإبل يَنْحَرونها لآلهتهم [1].

❀ ❀ ❀

الخمر والجاهليين:

وكانت الخمر شائعة بين الجاهليين شيوعاً مستطيراً يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلي، ولقد أخذت هذه المسألة في أول الإسلام بعض الوقت إلى أن كفّوا عن تعاطي أم الخبائث ممتثلين لأمر الله، وذلك بعد أن تدرج بهم القرآن الكريم مرحلة بعد مرحلة كما هو معروف من النصوص القرآنية حتى أقلعوا

(١) الأمالي ج١ ص٢١١ - الصدوق.

عنها إقلاعاً لم يحدث من قبل ولا من بعد في أي مجتمع أو حضارة بشرية !

والآن مع بعض النصوص القرآنية التي تتحدث في موضوع الطعام والشراب والحلال والحرام منهما:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[١] .

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾[٢] .

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[٣] .

قال تعالى: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[٤] .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾[٥] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٣

(٢) سورة المائدة الآية ٣

(٣) سورة المائدة الآية ١٠٣

(٤) سورة الأنعام الآية ١٤٥

(٥) سورة النحل الآيات ١١٥ - ١١٦ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

أقول: لا أدري أكان من العرب الوثنيين من كان يأكل لحم الخنزير أم لا، لكن المؤكد أن النصارى كانوا وما زالوا يأكلونه رغم أنه محرَّم في شريعة كليم الله موسى عليه السلام، التي أكد السيد المسيح عليه السلام أنه إنما أتى لتكميلها لا لنقضها، إلا أن بولس اليهودي ما إن دخل النصرانية حتى أشاع فيها الاضطراب وألغى كل ما جاءت به تلك الشريعة تقريباً، ومن بين ما ألغاه تحريم الخنزير[٢].

❀ ❀ ❀

المجتمع العربي في الجاهلية:

ولأن المجتمع العربي في الجاهلية مجتمع رعوى كان اللبن من أغذيتهم الرئيسية.

وكان من أطعمتهم أيضاً العسل، يحصلون عليه من النحل الذي يعيش في الجبال أو على غصون الأشجار.

كما كانوا يطيِّبون شرابهم بالكافور والزنجبيل والمسك:

قال تعالى ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[٣].

وقد أمتنّ الله عليهم بهذا كله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۝ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ

(١) سورة المائدة الآية ٩٠

(٢) سورة الإنسان الآية ٥

(٣) سورة النحل الآيات ٦٦-٦٩

وَالأعنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَراً وَرِزقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُختَلِفٌ أَلوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

قال تعالى: ﴿وَأَنهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعمُهُ وَأَنهَارٌ مِن خَمرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾.

قال تعالى: ﴿وَيُسقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾.

قال تعالى: ﴿يُسقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَختُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسكٌ ﴾ (٢) .

وفي تفسير قوله تعالى على لسان الشيطان متحدثاً عن بني آدم:

﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلقَ اللهِ ﴾(٣) .

يقول الزمخشري: تَبْتِيكُهم (أي تَبْتِيك عرب الجاهلية الوثنيين) الآذان:

فِعْلُهم بالبحائر: كانوا يشقّون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذَكَراً، وحرَّموا على أنفسهم الانتفاع بها.

وتغييرهم خلق الله: فَقْءُ عين الحامي وإعفاؤه من الركوب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ

---

(١) سورة محمد الآية ١٥

(٢) سورة المطففين الآيات ٢٥ - ٢٦

(٣) سورة النساء الآية ١١٩

يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] .

نرى لوناً آخر من اعتقاداتهم الوثنية التي كان لها تأثير على أحكام الطعام عندهم، إذ كانوا يجعلون لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونَتاج دوابّهم نصيباً، ولآلهتهم نصيباً من ذلك يَصْرِفونه على سَدَنَتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما خصصوه لآلهتهم عَوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ﴾.

أي إلى المصارف التي شرع الله الصَّرْف فيها كالصدقة وصلة الرَّحِم وقِرَى الضيف، ومعنى عبارة ﴿وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها.

وفي (الكشاف) للزمخشري أنهم: كانوا يعيّنون أشياءَ من حرثٍ ونتاجٍ لله، وأشياءَ منها لآلهتهم، فإذا رَأَوْا ما جعلوه للّه زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زَكَا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلُّوا بأن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ﴾.

يقول: أي لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليه من قِرَى الضِّيفان والتصدق على المساكين.

أما قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

فمعناه أنهم ينفقونه على الأوثان: في ذبح النسائك عندها والإجراء على سَدَنتها ونحو ذلك.. أو كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٣٦

أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، وهذا معنى آخر للآية الكريمة.

وفي الآيتين ١٣٨ - ١٣٩ من نفس السورة نقرأ قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

و(الحِجْر) هو التضييق، والمقصود أنهم يَقْصِرونها على طرفٍ دون آخر.. ذلك أنهم كانوا إذا عيَّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا:

«**لا يَطْعَمها إلا من نشاء**»، يَعْنُون خَدَم الأوثان والرجال دون النساء، أما الأنعام التي حُرِّمَتْ ظُهُورهَا فهي البحائر والسوائب والحَوامِي.

ثم هناك الأنعام التي لا يُذْكَر اسم الله عليها في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام.

وقيل: لا يحجّون عليها ولا يُلَبُّون على ظهورها.

أي أنهم قسّموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجْرٌ، وهذه أنعامٌ محرَّمة الظهور، وهذه أنعامٌ لا يُذكر عليها اسم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا يقولون أيضاً: «**ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وإن يكن مَيْتَةً فهم فيه شركاء**».

أي أن ما وُلِد من أَجِنّة البحائر والسوائب حَياً فهو خالص للذكور لا تأكل

منه الإناث، وما وُلِد منها ميتاً أشترك فيه الذكور الإناث.

وفي ذات السياق أيضاً ورد قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ (١).

ومعناه أنهم كانوا يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها (لأنها جماد، فهي لا تدرى ماذا يجعلون لها وماذا لا يجعلون)، نصيباً مما رزقهم الله من الزروع والأنعام يتقربون بذلك إليها.

ﷺ ﷺ ﷺ

الجاهليون وطبيعة عيشهم:

فإذا انتقلنا من موضوع الدين والعقيدة والحلال والحرام من الطعام إلى البيئة وجدنا تكراراً لذكر الجبال في آيات كثيرة من القرآن المجيد، وهذا أمر طبيعي، فالجزيرة العربية مملوءة بالجبال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٤).

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ

---

(١) سورة النحل آية ٥٦

(٢) سورة هود آية ٤٢

(٣) سورة إبراهيم آية ٤٦

(٤) سورة النحل آية ٦٨

أَكِنَانًا﴾[١] .

قال تعالى: ﴿وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسفًا﴾[٢] .

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمرٌ مُختَلِفٌ أَلوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[٣].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ۝ وَالجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[٤] .

قال تعالى: ﴿وَالجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنعَامِكُمْ﴾[٥].

كما أشار القرآن الكريم، في آية مشهورة، إلى ظاهرة أخرى من ظواهر البيئة العربية هي ظاهرة السراب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدهُ شَيْئًا﴾[٦] .

وعلى ذكر السراب فإن الماء شحيح في الجزيرة العربية، ومن هنا فكثيراً ما يمنّ الله على العرب بإنزاله من السماء ماء يُحْيي الأرض بعد موتها: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعلَمُونَ﴾[٧] .

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخرَجنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخرَجنَا مِنهُ خَضِرًا نُخرِجُ مِنهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾.

---

(١) سورة النحل آية ٨١

(٢) سورة طه آية ١٠٥

(٣) سورة فاطر آية ٢٧

(٤) سورة النبأ الآيات ٦ - ٧

(٥) سورة النازعات الآيات ٣٢-٣٣

(٦) سورة النور آية ٣٩

(٧) سورة الأنعام آية ٩٩

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾(٢).

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ (٤).

❀ ❀ ❀

المساكن في الجاهلية:

وبالنسبة للمساكن التي كان يقطنها العرب في الجاهلية فإن القرآن الكريم يشير إلى ضربين:

البيوت العادية، وهي بيوت أهل الحضر، وكانوا أقل في بلاد العرب من أهل الصحراء آنذاك، ثم بيوت الوَبَر والشَّعْر والجلد، وهي الخيام، التي لا يعرف سكان البوادي غيرها نظراً لتنقلهم المستمر وراء الغيث والمرعى:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

---

(١) سورة الأنفال آية ١١

(٢) سورة البقرة آية ٢٢

(٣) سورة المُلك آية ٣٠

(٤) سورة النبأ الآيات ١٤ - ١٦

حيوانات الجزيرة العربية:

والإبل هي أيضاً من حيوانات الجزيرة العربية، وهي مما ورد ذكره في كتاب الله، بل هي الحيوان الوحيد الذي لفت القرآن الكريم نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (١)، ومعروف أن الجمل هو سفينة الصحراء.

أما الحيوانات والطيور والطيور والزواحف والحشرات التي كانت تعيش في بلادهم أو يعرفونها ولو سماعاً فقد ذكر منها القرآن الخيل والبغال والحمير والجمال (أو الإبل) والبقر والمَعْز والضأن والفيل والسَّبُع والأسد (الذي استخدم له القرآن كلمة (قَسْوَرَة) والقِرَدَة والكلب والخنزير والغراب والهدهد والسلوى والضفادع والحوت والحية والثعبان والجوارح والنحل والجراد والبعوضة والعنكبوت والذباب والنمل والقُمَّل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿المَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ﴾ (٤).

قال تعالى: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ (٥).

---

(١) سورة النحل آية ٨٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٦

(٣) سورة البقرة آية ٥٧، والأعراف آية ١٦٠، وطه آية ٨٠

(٤) سورة البقرة آية ٦٨

(٥) سورة البقرة آية ٦٩

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ (١) .

قال تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ (٢) .

قال تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ (٣) .

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ (٤) .

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(٥) .

قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (٦) .

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ (٧).

---

(١) سورة البقرة آية ٧٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٩

(٣) سورة المائدة آية ٣

(٤) سورة المائدة آية ٤

(٥) سورة المائدة آية ٣١

(٦) سورة المائدة آية ٦٠

(٧) سورة الأنعام الآيات ١٤٢ - ١٤٤

الثمار والأشجار:

وأما الثمار والفواكه والنباتات والأشجار التي كان يعرفها العرب فقد ذكر القرآن منها التين والزيتون والأعناب والرمان والنخيل والبقل والعَدَس والبصل والقثّاء والفُوم (وهو الثوم أو الحنطة) والقمح واليقطين (القَرْع) والخَمْط (الأراك) والأَثْل (الطرفاء) والسِّدْر والطَّلْح والريحان والقَضْب والأَبّ والضَّريع: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[1] .

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] .

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[3] .

قال تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾[4] .

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة آية ٦١

(٢) سورة الأنعام آية ٩٩

(٣) سورة الأنعام آية ١٤١

(٤) سورة يوسف آية ٤٣

(٥) سورة الكهف آية ٣٢

قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[١] .

ﷺ ﷺ ﷺ

الجاهليون والمعادن والجواهر:

وتبقى المعادن والجواهر والملابس:

قال تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[٢] .

قال تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾[٣] .

قال تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[٤] .

قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[٥].

قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾[٦] .

---

(١) سورة مريم آية ٢٥

(٢) سورة آل عمران آية ١٤

(٣) سورة الكهف آية ١٩

(٤) سورة الكهف آية ٣١

(٥) سورة الحج آية ٢٣ وفاطر ٣٣

(٦) سورة سبأ آية ١٠ - ١٢ (٦)

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٢).

❀ ❀ ❀

لسان العروبة:

وفي القرآن الكريم أيضاً ذِكْرٌ لمكة ويثرب والمدينة ولسان العروبة، وقريش ورحلتيها إلى الشام واليمن، والكعبة ونبي الله إبراهيم أبي العرب وابنه إسماعيل عليهما السلام، وسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وسبإ وعاد وثمود ومَدْيَن، وهُود وصالح وشُعَيْب، واليهود والنصارى والصابئين والمَجُوس، والشِّعْر والشعراء والكُهّان والنفَّاثات في العُقَد، والأشهر الحُرُم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانوا يتوقفون فيها عن القتال والأخذ بالثأر ويجعلونها شهور هدنة، وإن كانوا أحياناً ما يستمرون فيه معوِّضين عنها بشهور أخرى يتوقفون فيها عن المعارك، وهو ما يسمونه: (النَّسِيء).

كما كان الأخذ بالثأر تقليداً جاهلياً راسخاً في أعماق النفس العربية، ولكنْ بالمقابل كانت مكة بما فيها الكعبة حَرَماً آمنا لا يجوز الأخذ بالثأر فيه مهما كانت الأسباب والمغريات، ولذلك يقال: (البلد الحرام)، و(البيت الحرام)، و(المسجد الحرام).

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٣

(٢) سورة الدخان آية ٥٣

وقد كان هذا كله جزءاً من حياة العرب وجغرافيتهم وتاريخهم وثقافتهم ودينهم: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ (١) .

لا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ (بالأخذ بالثأر) إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (باقتصاص الدولة من القاتل أو بأخذ الدية منه لأولياء القتيل حسبما يختارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ (٢) .

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَالهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (٣) .

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٣

(٢) سورة آل عمران الآيات ٩٦ - ٩٧

(٣) سورة الفتح آية ٢٤- ٢٥

قال تعالى: ﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[١] .

قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢] .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝١٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٢٦ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤] .

---

(١) سورة قريش آية ٢

(٢) سورة المائدة آية ٩٧

(٣) سورة الأحزاب الآية ١٣

(٤) سورة البقرة الآيات ١٢٥ - ١٢٩

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[١].

ﷺ ﷺ ﷺ

عادات وتقاليد:

كما أبرز القرآن الكريم في أكثر من موضع تمسُّك العرب الجاهليين بما تركه لهم الأجداد والآباء من عادات وتقاليد تمسّكاً حديدياً:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[٣].

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الحج آية ٧٨

(٢) سورة البقرة آية ١٧٠

(٣) سورة المائدة آية ١٠٤

(٤) سورة الزخرف آية ٢٢

وبالإضافة إلى الكلام عن الوثنيين نجد القرآن الكريم يتحدث عن عقائد اليهود والنصارى مبيناً أن كُلاً من الطائفتين كانوا يرددون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن اليهود كانوا يقولون إنهم لن يعذَّبوا يوم القيامة إلا أياماً معدودات، وأن منهم من كان يجعل عُزَيْراً ابن الله مثلما كان النصارى يقولون إن المسيح هو ابن الله، وإن كان الأخيرون يثلِّثون الألوهية، ومن هؤلاء من كان يعبد السيدة مريم والمسيح مع الله.

بل لقد اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يتبعون ما أدخلوه لهم في الدين من عقائد وعبادات وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان.

كما ذكر القرآن الكريم تحريف الفريقين لكتبهم، ونَصَّ على الأطعمة المحرَّمة على اليهود وما أضافوه إليها مما لم يحرّمه سبحانه عليهم، وهو لحم الإبل، وأشار إلى عقيدتهم في النبوة وأنها محصورة في بني إسرائيل، وزَعْمهم أن الله قد عَهِدَ إليهم ألا يؤمنوا بأي رسول إلا إذا أتاهم بقربان تنزل عليه من السماء نار تلتهمه، وأنه سبحانه لم يجعل عليهم في غير اليهود سبيلاً، ومن ثم كان من حقهم أن يسرقوهم ويخونوا أماناتهم معهم دون خوف من عقاب الله، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥).

---

(١) سورة المائدة آية ١٨

(٢) سورة الجمعة آية ٦

(٣) سورة آل عمران آية ٢٤

(٤) سورة التوبة الآية ٣٠ - ٣١

(٥) سورة المائدة آية ١٧

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (٤).

(١) سورة المائدة آية ٧٢ - ٧٣

(٢) سورة المائدة آية ١١٦

(٣) سورة البقرة الآيات ٧٨ - ٧٩

(٤) سورة النساء الآيات ٤٦

المجوس وذكره في القرآن:

ويبقى المجوس، وهناك آية قرآنية تتحدث عن التثنية في الألوهية هذا نصّها:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1].

وأقرب ما يمكن أن يفد إلى الذهن هنا ثَنَوِيَّة فارس، إذ كانوا يعبدون إلهين:

واحداً للنور، والآخر للظلمة.

وأغلب الظن أنه كان هناك عرب يؤمنون بها تأثراً بالفرس.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة النحل آية ٥١

الفصل الثاني

أمثال العرب في الجاهلية

أمثال العرب في الجاهلية

دراسة لغوية إجتماعية:

الأمثال: جمع مَثَل، وهو جملة من القول مقتطَعةٌ من كلام أو مرسلةٌ لذاتها تُنْقَل مما وردت فيه إلى مُشَابِهه دون تغيير.

وتمتاز هذه الجملة بأنها تلخّص الموقف أو الجدال أو التعليق وتَحْسِمه على خير وجه، وبأنها قصيرة لا تتجاوز بضع كلمات، وبأنها من الحيوية والسلاسة وحلاوة الصياغة وبراعة التصوير وتعدُّد الأبعاد بحيث يُكْتَب لها السيرورة والانتشار على ألسنة الناس، وبأنها لا تخلو في كثير من الأحيان من موعظة أو حكمة.

وبعض الأمثال العربية قد يكون مسجوعاً متوازناً، وإن لم يكن هذا شرطاً لا بد منه.

وقد كتب الباحث حنا الفاخوري زاعماً أن الأمثال الجاهلية، لكونها: «**كلام الشعب في جميع طبقاتهم، فقد جاءت في أكثرها غير مصقولة كما في**

قولهم: أول ما أَطْلَعَ ضَبٌّ ذَنَبَه» [١].

وهذا حكمٌ جُزَافٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس في عبارة المثل الذي أورده ما يدل على ركاكة أو ضعف في الصياغة البتة، وكلامه مجرد دعوى فارغة من المضمون.

وقد أكد الباحث شوقي ضيف بحق أن: طائفة من هذه الأمثال تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال - أكثم بن صيفي وعامر بن الظَّرِب -، وكان خطباؤهم المُفَوَّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشدها في خطاباتهم [٢].

أقول: إنني لأزعم، دون أدنى مبالغة فيما أحسب، أن معظم هذه الأمثال هي نموذج للصياغة البليغة الجزلة بعكس ما يهرف به المؤرخ حنا الفاخوري.

أما قول الدكتور شوقي ضيف: إن بعض الأمثال تخالف قواعد النحو والتصريف - فربما يكون كلامنا أدق لو قلنا إنها قد تخالف ما نعرفه من هذه القواعد، إذ كان الواجب أن يجعل علماء النحو والصرف تلك الأمثال مصدراً من المصادر التي أعتمدوا عليها في إستخلاص قواعدهم لا أن يحكّموا تلك القواعد في مثل هذه النصوص الجاهلية التي يصعب أن يكون قد دخلها تغيير يُذْكَر، إن كان قد دخلها أي تغيير على الإطلاق)[٣].

على عكس ما يؤكد الباحث فارق (K. A. Fariq) في كتابه:

إذ يقول: إن النثر الجاهلي كله «**بما فيه الأمثال طبعاً**»، **شأنه شأن الشعر**

---

(١) حنا الفاخوري/ تاريخ الأدب العربي/ بدون تاريخ أو دار نشر/ ٢٠٢.

(٢) الأستاذ الدكتور نفسه د. شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ط٧، دار المعارف، ٤٠٤، ٤٠٨.

(٣) المؤلف الشيخ عباس العاملي.

الجاهلي في ذلك العصر، قد دخله تحريف كثير من قِبَل الرواة، الذين زيفوه وبدّلوه وأضافوا إليه وحذفوا منه وشوّهوه» [١].

وذلك دون أن يدعم زعمه هذا بأي برهان، على الأقل فيما يخص الأمثال التي، نظراً لإيجازها الشديد وكثرة ترديدها وإستمرار الاستشهاد بها والحرص التام على أستعمالها كما نُطِق بها لأول مرة دون أي تحوير، يصعب جداً جداً أن ينالها شيء من هذا الذي قال.

وسوف نتوسع بعض التوسع في معالجة النقطة الخاصة بدعوى مخالفة الأمثال الجاهلية لقواعد النحو والصرف فيما بعد.

ونبدأ بالجانب اللغوي: وهناك ألفاظ كان الجاهليون يعرفونها ويستعملونها ولا يجدون فيها غرابة: لا في وَقْعها على الأذن ولا في وقعها على الذهن، ولا تشكِّل لهم من ثَمّ أية صعوبة في فهم دلالتها، بَيْدَ أن الأمر الآن قد تغير، فأضحت تلك الألفاظ لا تستعمل، وآضَتْ بحاجة إلى من يشرح للقراء معانيها، إذ اللغة تتطور كما يتطور كل شيء في الحياة، فيموت بعض ألفاظها ولو إلى حين، وتجدّ عليها ألفاظ لم تكن معروفة من قبل، أو على الأقل لم تكن شائعة الاستعمال كما هو الحال الآن... وهكذا.

وقد استطعت أن ألتقط بعضاً من تلك الألفاظ التي تحتاج إلى من يشرحها للقارئ العصري، أما لأنها غريبة عليه تماماً، وأما لأنها، وإن لم تكن غريبة عليه في ذاتها، فهي غريبة عليه بمعناها القديم، إذ أصبحت تعني في لغتنا الحالية معنى آخر غير الذي كان لها قبلاً، أو هي غريبة عليه بصيغتها لكونه يعرف لذلك المعنى صيغة أخرى.

---

(١) الباحث الدكتور فارق (K. A. Fariq) في كتابه: «History of Arabic Literature».

ومن هذا النوع من الألفاظ: الاحتلاط: الغضب،(أوّل العِيّ الاحتلاط).

والقَيْن: الحداد، «**إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح**».

والصَّرِيح: اللبن الذي ليس فوقه رُغْوَة، «**أَبْدَى الصريحُ عن الرُّغْوة**».

والعِذْرة: العُذْر، والحَقِين: الوَطْب الذي يُحْقَن باللبن، (أَبَي الحَقِينُ العِذْرة).

والشّاصِي: الرافع رجله، «**إذا أَرْجَحَنّ شاصاً فارفع يداً**».

والقِدْح: السهم الذي كانوا يستقسمون به، أي يحاولون أن يعرفوا به الغيب حسبما كانوا يتوهمون، «**أَبْصِرْ وَسْم قِدْحك**».

والشِّرْب: نصيب الشخص أو الحيوان من الماء، «**آخِرُها أقلُّها شِرْباً**».

والعِقْى (وجمعه أَعْقاء): ما يخرج من الصبي عند ولادته، «**أَحْذَر الصبيان لا تُصِبْكَ بأعقائها**».

والذِّلّ (وجمعه أذلال): السهولة، «**أَجْر الأمور على أذلالها**».

والحَسّ: الاستئصال، والأَسّ: الأصل «**أَلْصِق الحَسّ بالأَسّ**».

والسَّلَى: مشيمة الحُوَار، وهو الجَمَل الوليد، «**أنقطع السَّلَى في البطن**».

والوَذَم: سيور تُرْبَط بها أطراف العَرَاقِيّ، وهي الخشبتان اللتان تكونان على حافة الدلو يُحْمَل منهما، أو الخشبتان اللتان تصلان بين وسط الرَّحْل والمؤخرة، والمفرد: عَرْقُوَة «**أُمِرَّ دون عُبَيْدَة الوَذَمُ: لم يستشره أحد في الأمر لهوان شأنه**».

والبَعَاع: المتاع والثقل، «**ألقى عليه بَعَاعَه: ألقى عليه نفسه من حُبّه له**».

والزُّخَارِيّ: النبت عند ارتفاعه، «أخذت الأرض زُخَارِيَّها: أكتملت وبلغت الغاية».

والرَّطِيط: التذمر، «أَرِطِّي، إن خيرك في الرَّطِيط».

والعَقَنْقَل: المُصْران، «أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ: أعطه من كل ما معك مهما يكن تافها».

وحَظَبَ يَحْظُب: سَمِنَ، «أُعْلُل تَحْظُب».

والنَّجِيث: ما كان خافياً فظهر، «بدا نجيث القوم».

والحُذَيّا: العطيّة، «بين الحُذَيّا والخُلْسَة: إما أن تعطيه مما معك وإما اختلسه منك، أي أنه لا فَكَاك من أخذه منك ما معك».

والطِّرّيقة: اللين والضعف. والعِنْدَأْوَة: العِنَاد، «تحت طِرّيقته عِنْدَأْوَة».

والثَّأْطَة: الطين، «ثأطةٌ مُدَّتْ بماء: بمعنى: زاد الطينَ بِلّة».

والجَدْح: الشُّرْب، «جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَوِيقِ غيره. وجُوَيْن: أسم شخص، والسَّوِيق نوع من الطعام».

والقُذَّة: الريشة التي تركَّب على السهم، «حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة».

وهَرَاق: أَرَاق، «خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَي سِقاؤه، ومَنْ هُرِيق بالفلاة ماؤه: لأنه لا أمل في صلاحه».

واليَلْمَع: السراب، «أَخْذَل من يَلْمَع».

والدَّبَرِيّ: الذي يأتي بعد فوات الأوان «شرّ الرأي الدَّبَرِيّ».

والحَقْحَقَة: السَّيْر السريع الشديد، «شرّ السير الحَقْحَقَة».

والجِرْوة: النَّفْس، «**ضَرَب على الأمر الفلاني جِرْوَته: وطَّن نفسه عليه**».

والهِلْباجة: النؤوم الكسلان، أو الثقيل الجافي.

أعجز من هِلْباجة، وغَشَمْشَم: غَشُوم، «**غشمشمٌ يَغْشَى الشجر: يُفْسِد كل شيء ولا يبالي، كالثور في محل الخزف**».

والقُرَاب: القُرْب، «**الفِرَار بقُرَابٍ أكيس: الفرار قبل التورط في المهلكة أفضل من التمادي في الأمر**».

والقَطُوف: البطيء المتأني في مشيته، والوَسَاع: المسرع السابق:

القَطُوف يَبْلُغ الوَسَاع: قد يلحق المتأني المتعجِّلَ.

والكِفْت والوَثِيَّة: القِدْر الصغيرة والكبيرة، كِفْتُ إلى وَثِيّة: تقال لمن لا يكتفي بتحميل صاحبه المكروه الكبير، بل يُلْحِق به مكروها آخر.

والبِضَاع: الجِمَاع، كمعلَّمةِ أمها البِضَاع، وجَلَل: صغير، كلُّ شيءٍ أخطأ الأنفَ جَلَل.

واليَهْيَرّ: السراب، «**أكْذَب من اليَهْيَرّ**».

ولِحَام: لحوم، «**لكنْ لِحامٌ بشَرْمَةَ لا تُجَنّ**».

وبَلِلْت: ابْتُلِيت، ما بَلِلْتُ من فلان بأَفْوَقَ ناصِل: أتضح أنه رجل صعب المراس.

والأفوق الناصل: السهم المكسور.

ووَدَّعَ نفسه: أراحها. وهو مأخوذ من الدَّعَة لا من التوديع: من لم يَأْسَ على ما فات ودَّعَ نفسه.

والعَبَكَة: ما يعلق بأصواف الغنم من بَعْرها: ما أُباليه عَبَكَةَ.

ومُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاع: لاطئٌ بالأرض ينتهز فرصة ليثب على عدوه.

وتعَظْعَظَ: أتَّعَظ: لا تَعِظِيني وتَعَظْعَظِي.

وثمة جانب في الأمثال يحسن أن نتناوله ضمن ما نتناول منها هنا، ألا وهو الألفاظ العارية.

❀ ❀ ❀

الألفاظ والأمثال الجاهلية:

والواقع أن مثل هذه الألفاظ لا تظهر بقوة في الأمثال الجاهلية ولا في الأمثال العربية الفصيحة بوجه عام، وربما لم يكن هناك منها في الأمثال الجاهلية التي وقعت لي في كتاب (جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكري إلا (الضُّرَاط) والأسْت) و(الخُرْء)، فضلاً عن قلة ورود هذه الألفاظ في حد ذاتها.

وقد كنت أحسب أن مثل هذا النوع من الألفاظ سيكون كثيراً في كلام الجاهليين نظراً لخشونتهم وبداوتهم وعدم احتشام وثنيتهم، إلا أن الواقع جاء شيئاً آخر غير ما كنا نتصور، على الأقل طبقاً لما تقوله أمثالهم في هذا الشأن.

وهذه بعض شواهد على ورود هاتين اللفظتين في تلك الأمثال:

أَضَرِطًا وأنت الأعلى ؟ أَضَرِطًا آخر اليوم ؟

أسْتُ البائن أعلم .. أسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر.

قد يَضْرِط العَيْرُ والمِكْواة في النار.. خَرِئَتْ بينهم الضبع.

وهناك، إلى جانب ما مرّ، صيغ صرفية وتراكيب نحوية لم تعد تستخدم الآن، مثل استعمال (ليس) في موضع حرف العطف (لا) كما في المثل التالي:

إنما يَجْزى الفتى ليس الجمل.

وهو استعمال لـ (ليس) لا يعرفه كثير منا، يضاف إلى أستعمالها أداة إستثناء مثل (إلاّ) كما في قولنا:

قام الطلاب ليس عَلِيًّا.. أي قاموا إلا عَلِيًّا.

ومن هذه التراكيب أيضاً حذف خبر (أَنَّ) رغم عدم تقدم ما يدل عليه، إلا أنه مفهوم من السياق كما في الشاهد التالي: أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجاً لو أن أُسَيْمِرًّا، إذ المعنى أن هذا المكان هو فعلا المكان الذي يسمَّى (شرجًا).

إلا أن الأُسَيْمِر (أي شجرات السَّمُر) التي كنت أعبدها فيه ليست موجودة. وتمام الكلام إذن هو: أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجاً لو أن أُسَيْمِراً كنت أعبدها من قبل كانت هناك.

ولعل القارئ قد تنبه إلى تصغير صيغة الجمع في أَسْمُر: جمع سَمُرَة، وتصغير صِيَغ الجمع كما هي: أي دون ردّها إلى صيغة المفرد أوّلاً.

ممنوع بوجه عام في اللغة العربية حسبما هو معروف، اللهم إلا ما نَصَّ عليه الصرفيون، وهو جموع تكسير القِلّة، ومنها صيغة:

أَفْعُل التي بين أيدينا.

كذلك يعرف الملمّون بالنحو العربي أن هناك مواضع تحذف فيها (كان) واسمها، لكن ليس من بينها (إلا)، التي نلاحظ في الشاهد التالي كيف أن

قائل المثل قد حذف بعدها (كان) واسمها مثلما يحذفهما العرب بعد (لو) كما في قول الرسول الكريم مثلاً: التمس ولو خاتَمًا من حديد.

أي: ولو كان الذي تلتمسه مَهْراً مجرد خاتَم من حديد لا قيمة له تُذْكَر، وكذلك بعد (إنْ) المكرَّرة كما في مثل قوله ﷺ: "الناس مجزِيُّون بأعمالهم: إنْ خَيْراً فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ.

أي إن كان العمل المجزِيّون به خيراً فالجزاء خَيْرٌ، أو كان هذا العمل شرّاً فالجزاء شَرٌّ.

ونَصّ المثل هو: إلاّ حَظِيَّةً فلا أَلِيَّةٌ. أي: إذا لم يكن أمرك هو الحظوة عند من تريد أن يكرمك فلا تَأْلُ أن تتودد له.

ومن الشواهد التي جاءت فيها (كان) واسمها محذوفين قولهم في المثل التالي: قد قيل ذلك إنْ حقًّا وإنْ كذباً.

أي: أنه قد قيل ما قيل، وانتهى الأمر، سواء كان الكلام المَقُول حقاً أو كذباً.

كذلك أنظر إلى المثل التالي: أنا غَرِيرُك من الأمر.

ومعناه: أنا عالم بالأمر علماً يجعلني أجيبك في أي أمر منه حتى لو كان سؤالك على حين غِرّة.

كيف أدى التركيب فيه إلى المعنى المقصود رغم أنه لا يدل عليه دلالة مباشرة لا تُحْوِج إلى شرح.

وهناك أيضاً المثل التالي بتركيبه الذي لا يقابلنا في فصحانا المعاصرة رغم استمراره في العاميّة: أَعْوَرُ، عَيْنَكَ والحَجَرَ.

فهو يدل على التحذير من خطر يتهدد المخاطب، وهو هنا الحجر الذي يمكن أن يصيب عين الأعور، مع ملاحظة أن كلا من المهدِّد (الحجر) والمهدَّد (العين) منصوب كما هو واضح. وهو تركيب لا يستعمل الآن إلا في العامية كما قلت، بل لا أظنه من التراكيب التي تقابلنا في النصوص القديمة كثيراً. ولا تنس أن أداة النداء قد حُذِفت كذلك في النص، إذ الأصل: يا أعور.

والمقصود: أيها الأعور، أحذر أن يصيب عينَك الوحيدةَ الباقيةَ حجرٌ يذهب ببصرها أيضاً فتصبح أعمى تماماً.

أما في قولهم: أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلة ؟

فقد حُذِف الفعل وفاعله، وهو استنكار لجمع الشخص بين خَلّتين سيئتين في تعامله مع الناس بدلاً من الاقتصار على واحدة منهما ليست في ذاتها بالقليلة.

ومثله قولهم في مثلٍ آخر: أَغَيْرَةً وجُبْناً ؟

وهو مثل تقوله الزوجة لرجلها الذي يغار أشد الغيرة عليها، لكنه من الجبن بحيث لا يحاول الدفاع عنها إذا تعرض عِرْضه للعدوان.

وهناك صيغة صرفية قابلتني في الفعل: (أَنْجَدَ) من قولهم:

أَنْجَدَ من رأى حَضَناً، (إشارةً إلى الوصول إلى الغاية)، وهي صيغة أَفْعَلَ: للفعل الماضي المشتق من اسم بلدٍ ما أو مدينةٍ من المدن، كقولهم: أَعْرَقَ، وأَشْأَمَ، وأَعْمَنَ، وأَيْمَنَ، وأَمْنَى.

أي: وصل العراق أو الشام أو لبنان أو اليمن أو مِنًى أو شارف الوصول.

وحَضَنٌ: اسم جبل مشهور في نجد.

وثمة صيغة جمعية لا نستخدمها عادةً في الموضع الذي جاءت فيه، وهي صيغة (أفعال) في قولهم: أجناؤها أبناؤها، (جمع، جانٍ، وبانٍ) بدلاً من جُنَاتُها بُنَاتُها. أي: أن من جَنَوْا عليها (أي هدموها) هم أنفسهم الذين سبق أن بَنَوْها.

وهي صيغةٌ جمعيةٌ قليلةُ الاستعمال في هذا الموضع حسبما قلنا كما في: صاحِب، أصحاب، وشاهِد: أشهاد.

ولكنها ليست خاطئة كما قد يُفْهَم من كلام الدكتور شوقي ضيف، الذي علق على هذا المثل قائلاً: إن القياس جُنَاتُها بُنَاتُها، لأن فاعلاً لا يُجْمَع على أفعال [١].

وفاته أن القرآن الكريم نفسه قد استخدم: أشهاد، في موضعين منه [٢] ومثلها: أصحاب، التي تكررت فيه نَيِّفاً وسبعين مرةً، وهما جمع شاهِد وصاحِب على التوالي، وليس بعد قول الله قول.

كما ورد عن العرب أيضاً قابِس: أَقْباس. وجاهِل: أَجْهال [٣].

أما في قولهم: إذا جاء الحَيْن، حَارَ العين.

فنلاحظ تذكير الفعل: حَارَ، رغم إسناده لمؤنث، وهو استعمال صحيح لأن لفظة: العين، وإن كانت مؤنثة، فتأنيثها مجازي، أي أنها ليست كائنا حيًّا له عضو أنوثة كالمرأة والدجاجة مثلاً، ومن ثم جاز في لغة الضاد تذكير فعلها.

ومن التركيبات اللافتة للنظر أكتفاؤهم بالحال فقط من بين أركان الجملة جميعاً كما في المثلين التاليين: أضَرِطًا وأنت الأعلى ؟ أضَرِطًا آخر اليوم ؟.

---

(١) العصر الجاهلي ص ٤٠٨ – د. شوقي ضيف

(٢) سورة هود آية ١٨، وسورة غافر آية ٥١

(٣) الفيصل في ألوان الجموع – عباس أبو السعود – دار العارف ١٩٧١

أما في قولهم في المثل التالي: أَقْلِبْ قَلابِ.

أي اقلب الكلام وعُدْ إلى ما قلتُه من قبل. وهو مثل يُضْرَب للرجل تكون منه سقطة فيتداركها بأن يقلبها عن جهتها ويصرفها عن معناها.

فعندنا صيغة (فَعَال) التي تعني: أَفْعَلْ. مثل: دَرَاكِ، نَزَالِ.

أي: أَدْرِكْ، وأَنْزِلْ.

ومن أسماء الأعلام التي قابلتني في أمثال الجاهليين على هذه الصيغة أيضاً اسم: عَرَارِ، وهو من أسماء الأعلام المؤنثة، وقد ورد في المثل التالي: باءت عَرَارِ بكَحْل.

أي: أن عرار وكحلاً بقرتان متساويتان لا تفضل إحداهما الأخرى، فإذا أَخَذْتَ هذه بدلاً من تلك، أو تلك بدلاً من هذه، لم تخسر شيئاً.

ولنلاحظ أن هذا الاسم، رغم مجيئه فاعلاً، قد بُنِيَ على الكسر، وهذا إعرابه دائماً في لغة الحجازيين مهما تغيرت وظيفته في الجملة.

ومنه أيضاً ما ورد في الأمثال التالية: اِسْقِ رَقَاشِ، إنها سقّاية، اسم امرأة كريمة.

القولُ ما قالت: حَذَامِ. اسم امرأة اشتهرت بصحة رأيها.

أجرأ من خاصي خَصَافِ. اسم فرس خصاه صاحبه كي لا يأخذه منه ملك أعجبه الفرس وأراد أن يستولي عليه.

رُوغِي جَعَارِ، وأنظري أين المفرّ. اسم عَلَم على الضبع.

أَزْنَى من سَجَاحِ، وهي: الكاهنة التميمية المشهورة التي أدعت النبوة عند

وفاة رسول الله ﷺ ثم فاءت إلى الإسلام كرة أخرى، وكان لها مع مسيلمة الكذاب قصة معروفة هي التي شَهَرَتْها بهذا المثل.

صَمِّي صَمَام: اسم للداهية. وهو مثل يقال عند استفظاع الداهية تعبيراً عن الضيق بها والرغبة في انقشاعها.

بيد أن هذه الصيغة لا تبلغ غرابة صيغة (فُعَيْلَي) التي نقابلها في الشاهد التالي مرتين: الأخذ سُرَيْطَي، والقضاء ضُرَيْطَي.

أي هو في الاستدانة لطيف المعشر، لكنه عند الدفع يستحيل شخصًا شَكِسًا سَيِّءَ الذمة. وفي قولهم: أخذه الله أخذ سَبْعَة.

نراهم يسمون اللبؤة: سَبْعة (تأنيث سَبْع)، ولا يعرف هذه التسمية إلا الأقلون، ومَثَلُها في هذا مَثَلُ رَجُلَة (مؤنث «رَجُل) بدلاً من امرأة.

وفي بعض الأمثال نلاحظ إيراد الحرف (ما) قبل الفعل المتأخر عن شبه الجملة، وذلك لتأكيد المعنى، ومثله قولهم: باليدين ما أَوْرَدَها زائدةٌ (وزائدة اسم رجل)، بِعَيْنٍ ما أَرَيَنَّك، قبلك ما جاء الخبر.

لك ما أبكي، ولا عَبْرَةَ بي، وبالأَشْقَيْنَ ما حَلَّ العِقَابْ.

كما أن هناك مثلاً واحداً على الأقل تكررت فيه (بين) مع أسمين ظاهرين على خلاف ما يدعي بعض اللغويين المتنطّسين من أن مثل هذا التكرار لا تجيزه العربية، ثم أتضح لي منذ سنوات غير قليلة أن ذلك غير صحيح، إذ وجدتُ في الشعر الجاهلي والإسلامي عشرات الشواهد التي تدل على أنه ليس في هذا التكرار ما يعاب من جهة الأسلوب العربي الأصيل، وإن لم يرد ذلك التركيب في القرآن، إذ القرآن الكريم لا يستوعب، كما هو معروف، كل

إمكانات اللغة، فهو كتابٌ سماوي لا معجم لغوي.

وعلى أية حال هذا هو المثل المذكور: بين المطيع وبين المُدْبِر العاصي، أي أنه لا يوثَق بموقفه، فهو متذبذب بين الطاعة والمعصية، فأيتهما أمكنته جرى في طريقها.

ﷺ ﷺ ﷺ

التركيب في الأمثال الجاهلية:

ومن التراكيب التي قابلتني هنا أيضاً وأرى أنه ينبغي التلبث عندها قليلاً التركيب الذي عليه المثلان التاليان:

جَارِي بَيْتَ بَيْتَ.. وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ.

ببناء الكلمتين على الكسر كما هو واضح، وهو مثل قولهم: صباحَ مساءَ.. ليلَ نهار.. أحدَ عشرَ.

وقد أجريتُ التعبير العامي: خَبْطَ لَزْقَ عليه واستعملته في كتاباتي مطعِّماً الفصحى به على طريقتي في إغناء لغة الكتابة بما أرى إستعارته من العامية بعد إجرائه على مقتضيات قواعد النحو والصرف.

ويمكن أن نلحق به الكلام في الجملة التالية: أذهب إلى المكان الفلاني جَرْيَ جَرْي... وهكذا.

ومما لفت أنتباهي من التراكيب التي قابلتني في الأمثال الجاهلية ما ورد في قولهم: حَبَّ شيئاً إلى الإنسانِ ما مُنِعَا.. الذي استُخْدِم فيه الفعل (حَبَّ) بدلاً من أفعل التفضيل (كما في الجملة التالية: أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعاً)، مع نَصْب (شيء) لا جَرّه كما يلاحظ القارئ.

وهناك أيضاً تركيب آخر للدلالة على التفضيل وردت منه أمثلة في الشواهد التالية من أمثال العرب القدماء، وهي: فتى ولا كمَالِكٍ.. مَرْعًى ولا كالسَّعْدان.. ماءٌ ولا كصَدّاء.

فالاسم الذي بعد (ولا) مفضَّل على ما قبلها.

وقريب منه قولهم: المنيَّةُ ولا الدنيَّة.. النارُ ولا العارُ..

وإن كان التفضيل في هذا التركيب الأخير للمذكور أوّلاً، وهو المنيّة والنار على الترتيب.

أما في المثلين التاليين اللذين يجريان في تركيبهما على ذات المنوال فإن المعنى يختلف عما نحن إزاءه، ففي قولهم: مرعًى ولا أكولةٌ.. وعشبٌ ولا بعيرٌ.. لا مجال للتفضيل، بل المقصود التحسر على توفر المرعى والعشب بغزارة، ولكن دون فائدة، إذ لا وجود للماشية التي يمكن أن تأكله.

وبالنسبة لاستخدام كلمة: رُوَيْد.. لا أظننا الآنَ نعرفها إلا في قولنا: رُوَيْداً يا فلان.. بيد أن العرب القدماء كانوا يتصرفون فيها أوسع من ذلك كما في المثلين التاليين: رُوَيْدَ الشِّعْرَ يَغِبَّ (أنتظر قليلا حتى ينتشر الشِّعْر بما فيه من مدح أو هجاء ويعمل عمله في العقول)، رُوَيْدَ الغَزْوَ ينمرقْ.

ولاحظ كيف أن الاسم بعد (رُوَيْد) يكون منصوباً.

وللنحاة في هذا التركيب كلام يعللون به هذا الإعراب، وأرى أننا لا ينبغي أن نجري مع تقديرات النحاة التي لا تسير على منطق اللغة الواضح المستقيم، بل نكتفي بالقول هنا إن الاسم الواقع بعد رُوَيْدَ (رُوَيْد دون تنوين) يكون منصوباً، والسلام.

وذلك دون أن نعنّي أنفسنا بالبحث عن السبب في هذا النَّصْب خارج تلك الدائرة.. ثم إنه قد يلي هذه الكلمةَ فعلٌ كما في المثل التالي:

رُوَيْدَ يَعْلُون الجَدَد.. أي: أرفق حتى يمكنني الأمر.

وبالمثل لا أحب أن نرهق أنفسنا مع الصرفيين في توجيه صيغة الكلمة، وهل هي تصغير رُود طبقاً لما يقول به بعضٌ أو إرواد بناءً على ما يقوله آخرون؟

وهناك صيغة صرفية أخرى لم تعد تستخدم على نطاق واسع، وهي الأسماء التي على وزن (فُعْلَى)، إذ لا يفد على ذهني منها الآن إلا العُقْبَى أي: العاقبة.. والشُّورَى.. والنُّعْمَى.. أي: النعمة.. والبُقْيَا أي: الإبقاء.. والدنيا.

وفي القرآن الكريم، إلى جانب ذلك، الرُّجْعَي.. بمعنى الرجوع والسُّوأَي أي: السُّوء.. واليُسْرَى.. والعُسْرَى.

ومن أسماء النساء عند العرب: سُعْدَى.. وسُلْمَى.

وفي الأمثال التي بين أيدينا نجد أيضاً: رُغْبَي.. ورُهْبَي: رُهْباك خيرٌ من رُغْباك.. أي: رهبتك خير من رغبتك. والمعنى أنك لا تأتي ما تأتي من أعمال الخير عن رغبة منك وحب بل عن رهبة وخوف.

أما الاسم خَفَيْدَد: الظليم. أي: ذَكَر النعام.

في المثل التالي: أَشْرَه من خَفَيْدَد.

فقد جاء على صيغة لا أظنني قابلت أسماً آخر على وزنها من قبل، إذ هو وزن نادر لا أستطيع أن أتذكر أسماً من الأسماء المصبوبة فيه، وإن كان هناك سَمَيْدَع: الشريف الشجاع.. مثلاً، إلا أنه صفة لا أسم.

ومن التراكيب التي وجدتها في أمثال الجاهليين أيضاً قولهم: عَدْوَكَ إذ أنت رُبَع.. لتحميس الشخص ليبذل أقصى ما عنده كما كان يفعل أيام الشباب والحيوية.

والعَدْو هو الجرى السريع.. والرُّبَع هو الجمل في شبابه.

والشاهد في الكلام هو نصب عَدْوَكَ على الإغراء، والإغراء باب من أبواب النحو معروف، وإن لم يكن هذا التركيب مما ينتشر في الأسلوب العصري على نطاق واسع.

أما المثل القائل: عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُساً.

فهو يخالف القاعدة العامة التي تقول إن خبر (كاد) وأخواتها لا يكون إلا جملة فعلية فعلها مضارع: مع (أَنْ) أو بدونها حسب حالة كل فعل منها، إذ الخبر هنا مفرد لا جملة، فكأنهم قد أَجْرَوْا (عسى) في هذا المثل مجرى (كان) وأخواتها.

وبالمناسبة فهذا المثل هو أحد الشواهد في كثير من كتب النحو على ذلك الاستعمال.

وهناك استعمال آخر لـ (عسى) يسوّيها بـ (لعلّ)، فينصب أسمها ويرفع خبرها، الذي يمكن في هذه الحالة أن يكون مفرداً أو شبه جملة، ومنه ما كنا نسمعه من أهل العراق والخليج العربي حين يهنئ بعضهم بعضاً بالعيد فيقولون: عساكم من عُوّاده.

وبالمثل نجد أهل اللغة المهتمين بصحة الأساليب يخطِّئون مجيء (لا) بين (قد) والمضارع قائلين إنه ينبغي في هذه الحالة الاستعاضة بـ (ربما) عن

(قد) فلا يقال مثلاً: قد لا ألعب.. بل لا بد في هذه الحالة من تغييرها إلى: ربما لا ألعب.

وقد غَبَرَ عليّ زمن كنت أخطِّئ من يفعل ذلك، ثم جاء وقت ظننت أن هذا تحكم لا معنى له، كما وجدت في كتاب محمد العدناني:

معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة - بعض الشواهد على صحة هذا التركيب منها بيت شعر للأعشى نصه:

وقد قالت قُتَيْلَةُ إذ رأتـ...ـني وقد لا تَعْدَم الحسناءُ ذاماً

وهو مَثَلٌ يُضْرَب للشيء الرائع الذي لا يخلو أن يجد من يعيبه رغم هذا، وإن كانوا يحذفون منه: قد.

وهناك بيت آخر للنمر بن تَوْلَب الشاعر المُخَضْرَم، أورده العدناني أيضاً في كتابه، ونصه:

وأحْبِبْ حبيبك حُبًّاً رُوَيْداً لافقا. لا يَعُـولك أن تَصْـرِما

إلى جانب عبارتين لابن جني وابن مالك صاحب الألفية، وهما من كبار النحاة وأهل اللغة.

ثم بدا لي، وأنا أكتب هذه الدراسة، أن أراجع الشعر القديم في (الموسوعة الشعرية) الضوئية مجتهداً ما استطعتُ في مقاومة الملل والضيق أثناء بحثي عن الشواهد المرادة، لكنني، في حدود ما تنبهتُ وغالبتُ ملل البحث في أكوام ذلك الشعر، لم أتنبه إلى وجود شواهد أخرى تسوّغ موقفي الجديد، وهأنذا أعود فأرى أن من الأفضل لي أنا شخصياً مما لا أُلْزِم به غيري تجنُّبَ أستعمال ذلك التركيب في كتاباتي بما فيها الرسائل الشخصية التي لم أكن أتحرز فيها

تحرزي في الكتابات الرسمية والأدبية، والعَوْد أحمد كما يقولون.

بَيْدَ أنني قد عثرت رغم ذلك بالمَثَل التالي أثناء قراءتي لكتاب أبي هلال العسكري الحالي: جمهرة الأمثال.. وقائله رجل جاهلي هو سعد بن زيد مناة التميمي، قاله بعد أن شاخ وأضحى لا يستطيع أن يسوق بنفسه جمله الذي يركبه، وهو بالمناسبة من الشواهد التي ساقها الأستاذ العدناني، بارك الله فيه، وهذا نص المثل:

قد لا يُقَاد بي الجمل.

أي أنني لم أكن قبلاً أحتاج إلى من يقود بي الجمل كما هو الحال الآن بعد أن شِبْتُ ولم أعد أستطيع القيام بأمر نفسي.

فالمَثَل إذن تعبير عما يجده الرجل العجوز من تحسر بعد أن ضعفت قواه وولَّى عنه الشباب.

وهناك مَثَلٌ لفت نظري كونُه جملة إسمية خالية من أي فعل بما يعني خلوها من التحديد الزمني، وكان المفروض بناءً على هذا أن تدل على المعنى المقصود مطلقاً دون الارتباط بزمن معين، أو على الأقل مع قَصْره على الزمن الحاضر، لكنها مع هذا قد صيغت لتدل على الماضي، وهو ما لا يقبله النحويون.

فهذا الشاهد إذن يسير بعكس ما يقولون، وهذا هو نصه: لكنْ بشَعْفَيْنِ أنتِ جَدُودُ.. والجَدُود هي القليلة اللبن، والمثَل في امرأة كانت فقيرة محرومة حتى من اللبن، ثم أصابت غنًى وكثرت عندها الماشية ودَرَّ اللبن، فأخذت تتفاخر بذلك، مما دفع مبغضيها لتذكيرها بأيام فقرها حين كانت تنزل

الموضع المسمَّى: شَعْفَيْن.. كي تكف عن هذا الفخر الكريه.

كذلك هناك عدد من الأمثلة تتضمن: أفعل تفضيل.. مباشراً مشتقًّاً من فعل مبني للمجهول، وهو ما يرفضه كثير من الصرفيين حسب القواعد التي وضعوها، وإن كان لكل قاعدة شواذ كما نعرف، ومنها الأمثال التالية: أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن.. أَقْوَد من مُهْر.. أَمْنَع عُقَاب الجو.

ونختم هذه الملاحظات اللغوية بالإشارة إلى ما ورد في المثل التالي:

وِجْدانُ الرِّقين يغطِّي على أَفَن الأَفِين، أي: أن غنى الشخص وامتلاكه للرِّقين، وهي الفضة، يستر على كل عيوبه وحماقاته.

فـ (الرِّقين) جمع رِقَة، وهو ما يسمى في الصرف بالملحق بجمع المذكَّر السالم، لأن كلمة (الرِّقَة) لا تتوفر فيها الشروط التي لا بد منها في ذلك النوع من الجمع، مَثَلُها في هذا مَثَلُ: بُرَة: بُرُون- بُرِين.

كُرَة: كُرُون- كُرِين.

عِزَة: عِزُون- عِزِين.

عِضَة: عِضُون- عِضِين، مِئَة: مِئُون- مِئِين، رِئَة: رِئُون- رِئِين، سَنَة: سِنُون- سِنِين...إلخ.

فإذا أنتقلنا إلى الجانب الموسيقي لاحظنا أن بعض الأمثال تعتمد السجع والجناس والطباق والموازنة (كلها أو بعضها) بغية توفير قدر من الجاذبية الصوتية لضمان المتعة والحفظ والسيرورة.

ꕥ ꕥ ꕥ

الأمثال وأبيات الشعر:

بل إن بعض هذه الأمثال عبارة عن بيت من الشعر أو شطر من شطريه.

وها هي ذي الشواهد على ما نقول: أختلط الحابل بالنابل.

إذا أردتَ المحاجزة فقَبْلَ المناجزة.

إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ.. إذا لم تَغْلِبْ فاخْلُبْ.. إذا جاء الحَيْن، حارَ العَيْن.. ارْقَ على ظَلْعك، وأقْدِرْ بذَرْعك.. أرنِيها نَمِرَة أُركَها مَطَرَة.. أعْذَرَ من أنْذَر.. إن القُنُوع الغنَى لا كثرة المال.. إنني لن أضيرَه. إنما أطوى مَصيرَه.. أستغنت التُّفَّة عن الرُّفَّة.. بِعْتُ جاري، ولم أَبِعْ داري.. جاء بالطَّمّ والرَّمّ.. جَدَّك لا كَدَّك.. حال الجَريض دون القَريض .. الخَلاء بَلاء.. دُهْدُرَيْن سَعْد القَيْن.. رُبَّ قَوْل أشد من صَوْل .. ضَرْب أخماس لأسداس.. الطريفُ خفيف، والتَّليدُ بليد.. قُرْبُ الوِسَاد، وطُولُ السَّوَاد.. كُلّ الحِذَاء يحتذِى الحافي الوَقِع.. لولا اللئام لهَلَكَ الأنَام.. ليس من العَدْل سرعة العَذْل.. مَنْ لي بالسانح بعد البارح.. المنايا على البلايا.. مِنَ العَنَاء رياضة الهَرِم.. هذا أوان الحرب، فاشتدِّى زِيَمْ.. اليومَ خَمْر، وغدًا أَمْر.

الأسماء الأعلام في الجاهلية:

ومن الجوانب الاجتماعية التي أريد أن أتناولها في هذ الدراسة الأسماء التي كان العرب القدماء يتسمَّوْن بها، وقد وُفِّقْتُ إلى العثور على الأسماء التالية للرجال والنساء:

فأما الرجال، وليسمح لي الجنس اللطيف أن أبدأ بهم أولاً جرياً على العرف الاجتماعي وليس رغبة في تنقصهن، فها هي ذي أسماؤهم التي تنبهتُ إليها أثناء تصفحي للأمثال الجاهلية (الجاهلية فعلاً أو ظناً) الموجودة في كتاب العسكري:

سَعْد: سُعَيْد. عُبَيْدَة: دَرِم. سَمْلَقَة: حُنَيْف. مالك: زيد. مناة: عمرو.

سالم: فَلْحَس. مادِر: سَحْبان. قُسّ: لقمان. المُرَقِّش: جُوَيْن. عُمَيّ: حاتم.

هَرِم: كعب. هَبَنَّقَة: حُجَيْنَة. ربيعة: عَدِيّ. أبو غُبْشَان: جَنَاب.

عِجْل: الأحنف. سِنَان: حُنَيْن. عُرْقوب: دُعَيْمِص. أسعد: فُطْرَة.

إياس: أخزم. حُدَاجة: قَرْنَع: شِظَاظ: سَلاَغ. عائشة: عَثْم.

مَرْقَمَة: جُفَيْنَة. حُمَيْق: عَوْف. كُلَيْب: مَرْوان. الشَّنْفَرَي: السُّلَيْك.

باقِل: مُزَيْقِياء. عُتَيْبَة: قيس. عاصم: الحارث. حاجب: زُرَارة.

سَدُوم: بِسْطام. كُلثوم: عامر. البَرّاض: ظالم. المُذَلِّق: الطُّفَيْل.

ناشِرة: قَصِير. حَمَل: أَسْلَم. ضُبَارة: جَدْرَة. ابن تَوْضَع: الذئب.

عصام: خُرافة. عَبّود: جَنَاب. خُرَيْم: حَيَان. حوثرة: خَوّات.

الخُرْشُب: شَنّ. السَّمَوْأَل: جَذِيمة. النَّطِف: لُكَيْز. أَسْلَم: قَوْضَع. إلخ.

هذه أسماء جنس الرجال، وكما يرى القارئ فمعظمها خَشِنٌ ووعرة والآن إلى أسماء القوارير، ولكن يؤسفني من كل قلبي أن أقول إنها، بوجه عام، لا تقل خشونةً ووعورةً، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد كان الجاهليون بدوا خشنين، وكان معظم ما حولهم وَعْراً جافياً، فمن أين يمكنهم أن يستمدوا

الأسماء الجميلة، والإنسان في الغالب هو ابن بيئته وظروفه ؟

ما علينا، فلنتابع أسماء الجنس اللطيف في الجاهلية، ولنكن على ذكر من أن صاحبات هذه الأسماء الجافية هن اللاتي شغلن أفئدة الشعراء وأسهرنهم الليالي يتقلبون على الشوك والجمر، أو لا يجدون ما يعملونه سوى عد النجوم بسبب مجافاة النوم لهم، وأشعلن خيالهم وأطلقن ألسنتهم بالقصائد الخالدة التي أبقت على ذكرهن طوال هذه القرون وستُبْقِي عليها إلى أبد الآبدين ما دامت هناك هذه اللغة العبقرية، لغة الضاد. وهذه بعض ما وجدتُه من أسماء لآنساتنا وسيداتنا (تيجان رؤوسنا سواء رَضِينا أو كَرِهْنا):

رَقَاشِ: حَذَام. سَجَاحِ: زرقاء. حَوْمَل: مارِخَة. أمّ خارجة: مَنْشِم.

لَمِيس: مارية. حليمة: الزَّبَّاء. أمّ قرفة: ظُلْمَة. صُحْر: عاتكة.

شَوْلَة: خبيثة. وهلمّ جرا.

ومن الواضح أن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء، الرجالي منها والنسائيّ، قد أختفت من حياتنا تبعاً لتغير الأذواق والمفاهيم والمعتقدات وظروف الحياة والبيئة والتطور التاريخي، وبخاصة أنها أسماء جاهلية لا تربطنا بها وشيجة كالتي تربطنا بالأسماء الإسلامية التي نعتز بها أيما أعتزاز ونحرص على تسمية أبنائنا وبناتنا بها.

هذا، وما أكثر الأمثال التي تدور حول هذا الشخص أو ذاك لِخَلَّةٍ فيه أو لحادثةٍ وقعت له أشتهر بها بين العرب حتى ضُرِب به المثل، ومن ذلك الأمثال التالية، وكثيرٍ منها يقوم على المقارنة وأفعل التفضيل: **آبَلُ من حُنَيْف الحاتم.. أي أكثر إبِلاً.. أبخل من مادِر.. أبصر من زرقاء.. أبلغ من سَحْبان.. أَتْيَسُ من**

تُيُوس تُوَيْت.. أحزم من سِنَان.. أحكم من لقمان.. أحمق من أبي غبشان، أو من شَرَنْبَث.. أَسْرَق من شِظاظ.. أَسْعَدُ أم سُعَيْد.. أَضْبَط من عائشة بن عَثْم.. أطمع من فَلْحَس.. أعظم في نفسه من مُزَيْقِياء.. أَفْتَك من الحارث بن ظالم.. أَقْوَد من ظُلْمة.. أَنْكَحُ من حَوْثَرَة. وهذا المثل يقال للشخص المِزْوَاج.

أَنْعَم من حَيّان.. أينما أُوَجِّه أَلْقَ سَعْداً.. بِيَدِى لا بِيَدِ عمرو.. تجشَّأ لقمان من غير شِبَع.. دَقُّوا بينهم عطر مَنْشِم.. أي ثارت بينهم حربُ شؤمٍ مُهْلِكة، ومَنْشِم امرأة كانت تبيع العطر، وهو عطر مشؤوم.

دم سَلاّغ جُبَار.. أي هَدْر.. دُهْدُرَّيْن سعد القَيْن.. رِدْ كعبُ، إنك وَرّاد، يقال لمن على شَفا الموت.. شَبَّ عمرو عن الطوق.. شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم.. صحيفة المتلمِّس، وهي كلمةٌ تقال عند التشاؤم بشيء تُخْشَى من ورائه الهلكة.

صفقة لم يشهدها حاطِب.. عادت لِعِتْرها لَمِيس، أي رجعت لعادتها القديمة.

في بيته يُؤْتَى الحَكَم، أي أن لفلان من الكرامة ما يوجب على الناس أن يذهبوا إليه ولا يذهب هو.. القول ما قالت حَذَام.. لا حُرَّ بِوَادِي عَوْف، يقال للسيد المستبد الذي لا ينهض له أحد.. هما كَنَدْمانَيْ جَذِيمة.. ولو بقُرْطَي مارية، يقال للشيء النفيس لا يمكن التفريط فيه ولو دُفع فيه أغلى ثمن.. يا ويلتا! رآني ربيعة.. ما يوم حليمةَ بِسِرّ، واليوم هنا بمعنى المعركة، وأيام العرب هي معاركهم وحروبهم المشهورة، والمقصود بيوم حليمة المعركة التي ضَمَّخَتْ فيها الأميرة حليمة بنت الحارث بن جَبَلَة رجالَ جيش أبيها بالعطر غداة انطلاقهم للحرب، وكان يوماً مشهوراً ضُرِبَ به المَثَل.

أسماء الحيوان:

على أن أسماء الأعلام لا تقتصر على الأشخاص، بل تشمل الحيوان والمكان أيضاً: ومن أسماء المواضع التي وردت في أمثال الجاهليين أَبَان (جبل)، شَجِعَات، شَرْج، حَضَن (اسم جبل)، أَجَلَى، أَضَاخ، مكة، عَرَار (اسم بقرة)، كَحْل (اسم بقرة أخرى)، بَرَاقش (اسم كلبة)، المارد (اسم حصن)، الأبلق (اسم حصن آخر)، الرَّامَتَان (وهو الاسم الذي أطلقه طه حسين على دارته في الجيزة.

وقد أخذه من المثل القائل: تسألني (أي ناقتي) برَامَتَيْن سَلْجَمًا، أي تطلب شيئاً ليس هذا موضعه)، شُبَيْث، الأَحَصّ، ثَهْلان (جبل)، خُمَيْرَة (اسم فرس)، ابنا شَمَام (اسم هَضْبتين)، صَدّاء (اسم ماء)، بَرِيَّة خُسَاف، هَرْشَى، بَلْدَح، شَعْفان، لُبَد (اسم نسر طويل العمر)، تَرْج (مكان تكثر فيه الأسود)، خَفّان (مكان آخر تكثر فيه الأسود)، تَبَالَة.

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف إلى جانب آخر من جوانب الحياة الطبيعية في الجزيرة العربية في ذلك العصر، ألا وهو أنواع الحيوان والطيور التي كانت موجودة هناك وتعرضت لها أمثال الجاهليين.

وفي كثير من هذه الأمثال نرى نظرة العرب إلى الحيوان أو الطير المذكور وكيف كانوا يرَوْن طباعه وعاداته بغض النظر عن مدى صحة هذا الرأى أو لا.

والملاحظ أنهم قد يصفون الحيوان أو الطير بصفات مختلفة أو متناقضة، كل صفةٍ في مَثَلٍ مختلف، كما أنهم قد يصفون عدة حيوانات أو طيور بصفة واحدة.

أسماء الطيور:

ولسوف أذكر نص كل مثل ورد فيه ذِكْرٌ لحيوان أو طير:

فمنها: استَنْوَقَ الجَمَل.. أَتْبِع الفَرَسَ لجامها.. إذا نام ظالعُ الكلاب.

أَرْغُوا لها حُوَارها تَقِرّ «**الحُوَار: ولد الناقة**».

أَصِيدَ القنفذُ أم لُقَطَة؟ أَنْكَحْنا الفَرا، فسنرى «**الفَرا: الحمار الوحشي**».

أخوك أم الذئب ؟ أخذه الله أَخْذَ سَبْعة «**السَّبْعة: اللبؤة**».

أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ.. أَطْرِقْ كَرا، إن النعام في القرى «**الكَرا: الواحد من طيور الكِرْوَان**.

والمراد أنك أهون من أن أقصدك بكلامي، بل أقصد قوماً يستحقون الكلام». البُغَاث بأرضنا يستنسر «**البُغَاث: طير صغير ضعيف**».

أَدْنَى حماريكِ ازجري.. آمَنُ من حمام مكة.. آلَفُ من غراب عُقْدَة.

آكَلُ من سوس، أو من فأر، أو من حوت، أو من الفيل، بالت بينهم الثعالب «**ثار بينهم الشر**»، خَرِئَتْ بينهم الضبع «**نفس المعنى السابق**»، أَبْعَدُ من بَيْض الأَنوق «**الأَنوق: ذَكَر الرَّخَمَة**»، أَبْصَر من عُقَاب، أو من نَسْر، أو من فرس، أَبْصَرُ بالليل من الوَطْواط، أَبَرّ من الهِرّة، أو من الذئبة، أبكر من الغراب، أبخل من كلب، أبلد من السُّلَحْفاة، أو من الثور، أبيض من دجاجة، أبخر من صقر، أو من فهد.

أَوْلَغ من كلب، هما كركبتي البعير «**أي متساويان في كل شيء**»، هما كفَرَسَيْ رِهَان «**دائماً التنافس في الخير**»، أهون من حُنْدُج «**وهي القملة**»، أو

من ضرطة عنز، لا تقتن من كلب سوءٍ جَرْواً، لا ناقتي فيها ولا جملي «**أمر لا يهمني**»، لا ينتطح فيها عنزان «**قضية محسومة لا جدال فيها**».

ولا شك أن هذه الأمثال تدل على دقة ملاحظة العرب الجاهليين في عالم الحيوان والطير مما لا نعرف نحن الآن عشر معشاره رغم التقدم العلمي والثقافي الذي تحقق للبشرية منذ ذلك الحين، وإن كان هناك بعض الأخطاء في تلك الملاحظات، وهو أمر طبيعي، إذ إن العرب ليسوا بِدْعاً بين البشر، فهم يجمعون في معلوماتهم بين الخطأ والصواب.

ولكن يكفيهم شرفاً وفضلاً أنهم كانوا بهذه الدقة وذلك التبصر فيما لاحظوه على ما حولهم من حيوان وطير كثير العدد كما رأينا في الأمثال التي سلفت، والفرق بين ما يميز الذكر عن الأنثى في الطباع والخصائص كالجمل والناقة طبقاً لما جاء في المثل القائل:

اسْتَنْوَق الجمل، أو حِمارٌ اسْتَأْتَن «**أي ظهرت على كل منهما علامات الأنوثة، فاقترب الأول أن يكون ناقة، والثاني أن يكون أتانا**»، وتخصيص اسم لكل عمر من أعمار الحيوان:

فالحُوار هو ولد الناقة، والفصيل هو الشاب من الإبل، على عكس الناب، التي هي الناقة المسنة، ثم الشارف، التي تأتي بعد ذلك.

وهناك الدِّرْص والحِسْل والسَّمْع والفُرْعُل والهِجْرِس والجحش والظبي والمُهْر والخِرْنِق والجَرْو والحَلَم، وهي صغار الفأر والضبّ والذئب والضبع والقرد والحمار والغزال والحصان والأرنب والكلب والقُرَاد على التوالي.

كذلك هناك الجمل والناقة، والأَنُوق والرَّخَمَة، والأسد واللبؤة، والحصان

والفرس، والحمار والأتان، والهِقْل والنعامة، والذئب والجَهِيزة، وهما الذكر والأنثى من كل حيوان من هؤلاء.. وهلم جرا.

وقد رأينا كيف أنهم استطاعوا التمييز بين طباع كل حيوان وغيره حتى في مسائل التبول، ورائحة الفم، والعطش أو الرَّيّ، والاهتداء إلى المسكن أو الضلال عنه، والعزة أو الذلة مثلاً، وإن اشتركت بعض الحيوانات في هذه السمة أو تلك من تصرفاتها... إلخ مما مر بيانه من الأمثال التي أوردناها آنفاً.

ﷺ ﷺ ﷺ

أسماء الشجر والنبات:

ويمكن أن يلحق بذلك ما تحدثت عنه الأمثال من شجر ونبات:

ترى الفتيان كالنخل، ولا يُنْبِيك ما الدَّخْل، «**أي أن المهم هو مخبر الإنسان لا مظهره**».

أشبهَ شَرْجٌ شَرْجاً لو أن أُسَيْمِراً «**والأُسَيْمِر: تصغير أَسْمُر، وهي جمع سَمُرَة، نوع من الشجر ينبت في بلاد العرب**».

إنك لا تجني من الشوك العنب.. عَصَبْتُه عَصْبَ السَّلَمة، «**والسَّلَم: نوع آخر من شجر العرب، وهو شجر شائك يستعمل ورقه وقشره في الدباغ، ويسمَّى ورقه: القَرَظ**».

أَرْخِ يديك واسْتَرْخِ، إن الزناد من مَرْخ.. في كل شجرةٍ نار، واسْتَمْجَد المَرْخُ والعَفَار، «**والمَرْخ والعَفَار: شجرتان تُقْدح أغصانهما لاستخراج النار منها**».

أشعث من قَتَادة «**وهو شجر كثير الشوك**».

مَرْعًى ولا كالسَّعْدان، «شوك تأكله الإبل فيغزر لبنها».

أخبث من ذئب الغَضَي، «والغَضَي: شجر جيد للوقود».

ﷺ ﷺ ﷺ

الجاهليين والجغرافية والفلكية:

ومن معارف الجاهليين الطبيعية التي تعكسها أمثالهم ما له علاقة بالبيئة الجغرافية والفلكية:

فمن ذلك قولهم: أبعد من العَيُّوق.. أَتْلَى من الشِّعْرَي، لأنها تتلو الجوزاء.. أُريها السُّهَا، وتُريني القمر.. أرقّ من رقراق السراب.. أطول صحبةً من الفرقدين، لأنهما نجمان لا يفترقان.

وبنات نعش: كواكب معروفة.. بَرْقٌ خُلَّب، وهو البرق الكاذب الذي لا يعقبه مطر.. أرنيها نَمِرة، أُرِكَها مَطَرة، ومعناه أن السحابة إذا كان فيها سواد وبياض فمعنى هذا أنها ستمطر.

وهذا يدل على خبرة بأنواع السحاب ومقدرة على التفرقة بين الممطر منها وغير الممطر.

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلادهم كانت تعتمد على المطر في المقام الأول، إذ ليس فيها أنهار كما هو الحال في مصر والعراق، ومن ثم كانت معرفتهم الدقيقة بكل ما يتعلق بالمطر والسحاب، وبخاصة أن السماء كانت مفتوحة أمام أعينهم لا يسترها عنهم ساتر، فقد كانوا يعيشون في خيام منصوبة في العراء لا في بيوت تعوق أعينهم عن النظر الحر المرتاح إلى الفضاء والأفق والسماء.

لقد كان الماء قضية حياة أو موت، ومن هنا مثلاً نراهم يقولون:

أن تَرِد الماءَ بماء أكيس- لمعرفتهم أنهم متى أنقطعوا عن الماء في باديتهم المتناوحة التي كثيراً ما يعزّ فيها عنصر الحياة الأول فقد يهلكون.

وبالمثل نقرأ في المَثَل التالي أن آخرها «**أي آخر الإبل الواردة على الماء للسقي**» أقلّها شرْبًا، إذ تَرِدُ وقد قارب الماء على النفاد، أو على الأقل تَرِدُ ولم يَعُد الماء صافياً كما كان للإبل التي شربت مبكرة، فضلاً عن أن تأخير السقي هو دليل على العجز والمذلة.

وإذا كانت هناك عين ماء طيّبة فسرعان ما تشتهر بينهم:

ماءٌ ولا كصَدَاء.. إن أَضَاخاً منهلٌ مورود.. أعذب من ماء البارق، أو من ماء الحشرج.

وثمة مثل آخر يشير إلى عملية الاستقاء من البئر بالحبال والدلاء:

بئس مَقَام الشيخ: أَمْرِسْ ! أَمْرِسْ !، أي: أنه لا يليق بك أن تزاول عملاً لا يناسب مكانتك، مثل وقوفك على شفا بئر وسُقْيَاك بالحبل، الذي قد ينقطع في يدك فيصيح الناس بك أن أَمْرِسْ ! أَمْرِسْ !، أي: أعد الحبل إلى مكانه من البَكَرة.

ومن أمثال الاستقاء أيضاً قولهم: أَلْقِ دلوك في الدِّلاء.

كذلك استطاع العرب القدماء أن يفرقوا بين الحيوانات والطيور المختلفة حسب مدى حاجتها إلى الماء، وسرعة أو بطء هذه الحاجة مثلما مضى بيانه في الأمثال التي قرأناها معا، وهو ما يبين لنا كيف كان الماء يحتل من أذهانهم واهتمامهم مكاناً ركيناً.

ومن الجوانب التي تتعلق أيضاً بالبيئة العربية القديمة ما كان الجاهليون يمارسونه من أعمال أو حِرَف تقوم على ما هو متوفر في هذه البيئة من ثروات أو إمكانات طبيعية:

خذ عندك مثلاً الدبغ، الذي جاء في أمثالهم عنه قولهم:

إنما يُعاتَب الأديم ذو البَشَرَة، بمعنى أن العتاب لا يصلح إلا مع من لا يزال فيه خير، كالجلد الذي يراد دبغه، فإن كانت له بَشَرَة، وهي ظاهر الجلد «**على عكس الأَدَمَة، التي هي باطنه**»، صلح دبغه، وإلا لم يحتمل الدَّبَاغ وتمزق.

كذلك لا بد، في عمية الدباغ، أن يُكْشَط اللحم تماماً من أديم الجلد ولا يترك عليه أي بقايا منه، وإلا فسد الجلد سريعاً:

أحمق من الدابغ على التحليء. والتحليء: ترك بقايا اللحم على الجلد، وفى هذه الحالة لا يصل إليه الدباغ.

وهناك مثل آخر يرد فيه ذكر (القارظ) على النحو التالي:

إذا ما القارظ العَنَزِيُّ آبَا، وهو جامع القَرَظ، أي ورق شجر السَّلَم المستعمل في عملية الدباغ.

والمثل للوعد الذي لا يمكن أن يتحقق لأنه معلق على شرط مستحيل، فالقارظ العَنَزي لم يعد من جولته في جمع القَرَظ حتى الآن، بل لن يعود أبد الدهر لأنه مات في الطريق.

وهناك أيضاً المثل التالي: أَرْتِعَنْ أَجَلَي أَنَّي شئت، أي: أن الموضع المسّمَّى: أَجَلَي هو من المواضع الجيدة الصالحة للرعي في أي وقت.

ومنها كذلك: مَرْعًى ولا كالسَّعْدان. وكان للرعي أصوله التي لا بد للراعي

من مراعاتها، وإلا فسد عمله: أساء رَعْياً فسقي مُقْصِباً، أي أنه لم يُشْبِع إبله من الكلإ كما ينبغي وأضطُرّ أن يملأ بطونها ماءً على قلة ما فيها من طعام فأضَرَّ بها ضرراً شديداً.

والإقصاب: أن تمتنع إبل الراعي عن الشرب.

كذلك كانوا يحلبون ماشيتهم بأنفسهم: حلبْتُها بالساعد الأشدّ، اُحْلُبْ حَلَباً لك شَطْره «**والحَلَب هو ما يُحْلَب من اللبن**»، حَلَبَ الدهرَ أَشْطُره.

ﷺ ﷺ ﷺ

مهن الجاهليون:

ومن المهن التي كان الجاهليون يمارسونها كذلك تأبير النخل:

جِبَابٌ، فلا تُعَنَّ آبِراً، والآبر هو ملقّح النخل، والمقصود أن النخلة لا طَلْع فيها، بل الموجود جِبَابٌ فحسب، أي: جُمّار، ومن ثم فلا فائدة في التأبير أصلاً.

ومن هذه المهن أيضاً الحُدَاء: كالحادي، وليس له بعير، والحادي هو سائق الإبل الذي يحدوها، أي: يغنّي لها حتى تنشط للسير ولا يعتريها الضعف والكلال.

وهذا المثل يشبه قولنا في الأمثال العامية: باب النجّار مخلّع.

أما المَثَل الذي وجدتُه عن الحَذّاء فيجري عكس هذا، إذ يقول:

من يكن الحذّاء أباه يجد نعلا.

والحدادة مهنة أخرى من المهن التي عرفها العرب:

إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح، أي: لا تصدق كل ما تسمع، فكثيراً ما يقول الناس كلاماً ويقصدون عكسه، كفعل القَيْن (وهو الحداد) عندما يزعم أنه مسافر من ليلته كي يدفع الناس إلى الإقبال عليه قبل أن يغادرهم، على حين أنه ينوي البقاء حيث هو.

وهناك مثل مشهور يذكر الحابل والنابل، أي: الصائد بالشبكة والصائد بالنَّبْل: اختلط الحابل بالنابل.

ومثل آخر لا يقل شهرة يتحدث عن القوس وصانعه: أَعْطِ القوسَ باريها، وهو كما نقول في مثلنا العامي: أعط العيش لخبازه.

ومثل ثالث يذكر السهام: قبل الرمى يُرَاش السهم.

❀ ❀ ❀

الجاهليون يمارسون الطب:

كذلك كانوا يعرفون الطب، وكان طباً بدائياً بطبيعة الحال:

يا طبيب، طِبَّ لنفسك، وكذلك البيطرة: أشهر من راية البَيْطار، أهون من ذَنَب الحمار على البَيْطار.

وكان من طبّهم الكَيّ: آخر الدواء الكَيّ، قد يَضْرِط العَيْر، والمِكْواة في النار.

كما كانوا يعالجون جَرَب الماشية بما يسمونه العَنِيّة: عَنِيّته تَشْفِى الجَرَب، وهي قَطِران وأخلاط تُجْمَع ويُهْنَأ بها البعير الأجرب.

ولعملية الهِنَاء أصولٌ منها ألا يقتصر الهانيء على دَهْن موضع الجَرَب

فقط، بل يعمّ سائر بدن البعير: ليس الهِناء بالدَّسّ «**والدَّسّ: الاقتصار في الهِنَاء على المكان المصاب بالجرب**».

وقد ورد في مثل من أمثالهم إشارة لمرض كان يصيب البعير، وهو الغُدَّة: أَغُدَّةٌ كغُدَّة البعير، وموتٌ في بيت سَلُولِيّة ؟

أما المثل التالي فيشير إلى مرض آخر هو القُلاَب، وهو داء يصيب الإبل في رؤوسها فيقلبها إلى فوق: ما به قَلَبة، أي أنه سليم لا يشكو من أي داء.

وقريب منه داء الصَعَر، وهو داء يأخذ في رقاب الإبل فيُميلها: لأُقِيمَنَّ صَعَرَك.

وكان الجاهليون يحبون الوشم، الذي كثيراً ما شبّه الشعراء به ما يرونه في أطلال حبائبهم من الخطوط وآثار الريح: أَثْبَتُ من الوشم.

ومن أعمالهم التي كان أهل كل بيت يمارسونه بأنفسهم خياطة الفتوق: أتسع الخَرْق على الراقع.

وجمع الحطب للنار: أَخْبَطُ من حاطِب ليل.

والطحن بالرَّحا: أسمع جعجعة ولا أرى طِحْناً، والطِّحْن هو الدقيق، والمعنى أن هناك ضجة، لكن ليس هناك دقيق، أي أنها ضجة على الفاضي.

ويتصل بهذه الأمثالِ تلك التي ورد فيها ذكر لما كانوا يتخذونه من أدوات لتأدية هذه الأعمال، ومنها الإبرة: أَبْغَى من إبرة.

والفأس: أَبْغَى من فأس.. والقِدْح: أبغض من القِدْح الأول.

والعصا: أبقى من تفاريق العصا.. والخيط: أدق من خيط.

والحبل: إن الشقيَّ بكل حبل يُخْنَقُ.. والحِذَاء: أدنى من الحذاء.

ورباط النعل: أدنى من الشِّسْع.. والمِجْمَر (المِبْخَرة): اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر.. والخُذْروف «**وهو لعبة للأطفال تشبه ما نسميه في مصر بالنحلة**»: أسرع من الخذروف.

والأُثْفِيَة «**الحجر الذي كانوا ينصبون منه اثنين تحت القدر**»: أَصْبَرُ من الأثافي على النار.

والجَلَم «المقص»: أقطع من جَلَم.. والعصا: أكثر من تفاريق العصا.

والشفرة: إنْ وجدتَ لِشَفْرَةٍ مَحَزاً.. والمرآة: أنقى من مرآة الغريبة.

والجُلْجُل: أَنَمّ من جلجل.. والسيف: تركته على مثل حرف السيف.

والصحيفة: صحيفة المتلمِّس.. والكنانة (جَعْبة السهام): قبل الرِّماء تُمْلأُ الكنائن.. والدلو: قد علِقَتْ دَلْوَك دلوٌ أخرى.. والمِجَنّ: قلبتُ له ظهر المجن.. والمكواة: قد يَضْرِط العَيْر والمكواة في النار.

ﷺ ﷺ ﷺ

بعض الأمثال في أطعمتهم:

أما أطعمتهم فهذه بعض الأمثال التي تتحدث عنها مما وضعتُ يدي عليه أثناء تجوالي في كتاب العسكري:

إنْ وجدتُ إليه فاكَرِشٍ، أي: إن وجدتُ إليه سبيلاً فسوف أطبخ الشاة في كرشها.

ومن أسماء أطعمتهم اللَّبَأ، وهو أول الألبان عند ولادة الحيوان: أَبَي أَبِي

اللَّبَأ.

ومن أطعمتهم أيضاً الرَّبيكة، وهي أَقِطٌ بسمن وتمر يُعْمَل رِخْواً:

غَرْثانُ، فاربُكوا له، أي أنه جائع فلا تكلموه في أي شيء لأن ذهنه مشغول بالجوع والطعام، بل أَعِدّوا له الرَّبيكة أوّلاً، فإذا أكل رجع إليه عقله. وهذا مثل قولنا: ساعة البطون تتوه العقول.

وأصل المثل، حسبما يروون، أن رجلاً عاد من سفر فأخبروه أن امرأته قد ولدت له غلاماً، فلم يهتم بالخبر لأنه كان يعاني من بُرَحاء الجوع وقال: وما أصنع به ؟ آكله أم أشربه ؟ فطلبت منهم زوجته أن يطعموه أولاً.

وقد كان، إذ بعد أن أطعموه أرتد إليه عقله وشرع يسأل عن الوليد وأمه، وهو سعيد محبور.

ولدينا كذلك طعام السَّويق: جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَويق غيره، وهو طعام سائل يُصْنَع من القمح والشعير على عجل للمسافر والجائع الذي لا يصبر.

والمراد أن جُوَيْنًا هذا، لأنه لا ينفق من ماله هو ولا يأكل من سَويقه بل من سَويق غيره، فإنه يسرف ولا يبالي بالاقتصاد.

والجَدْح: الشُّرْب.

وكانوا يصطادون الضَّبّ ويأكلونه: ما أبالي أناءَ ضَبّك أم نَضِحَ، أعط أخاك من عَقَنْقَل الضبّ، ويسمون صيده: حَرْشاً: هو أعلم بضبِّ حَرَشَه ؟.

وما فتئ الضبّ يُؤْكَل في الخليج حتى يومنا هذا.

وبالمثل كان العرب في الجاهلية يصطادون حمار الوحش ويأكلونه، وقد ورد ذكره في قولهم: كُلّ الصيد في جوف الفَراً، أَحْلَى من جوف حمار، لأنهم

كانوا يلقون بما في جوفه ولا ينتفعون به.

كما كانوا يأكلون الكَمْأَة، التي لا يزال الناس هناك يتلذذون بطعمها حتى الآن.. وهي، كما تقول المعاجم، نبات يخرج من الأرض كما يخرج الفُطْر [١].

وهناك نوع منها يسمَّى: «الفَقْع»: «أذلّ من فَقْعٍ بقَرْقَرَةٍ»، لأنه يظهر على سطح الأرض فتطؤه الأقدام، وإن كان هناك نوع آخر يحتاج إلى أن ينبش الإنسان الأرض عنه.

ومن أطعمتهم التي وردت بها الأمثال العسل: أحلى من العسل، أو من الشهد.

كما كانوا يصنعون الزُّبّاد من اللبن ويأكلونه، وجاء به المثل التالي:

اختلط الخاثر بالزُّبّاد.. ومعروفة في العراق بالكيمر.

ومن طعامهم في الجاهلية أيضاً الدم، وذلك بعد أن يَفْصِدوه من عِرْق الناقة أو الفرس ثم يملأوا المُصْران به، ثم يشووه ويأكلوه.

وهذا الطعام يسمَّى: الفَصِيد: لم يُحْرَم مَنْ فُصِد له، أي أن الفَصِيد طعامٌ كافٍ لمن يُقَدَّم إليه.

وقد جاء الإسلام بتحريم أكل الدم، ومعروف أن الدم مرتع لجميع أنواع الفيروسات والجراثيم والمكروبات، التي تضر الجسم والتي تسري إليه عند أكل الإنسان إياه.

وكانوا يحفظون الدُّهْن المذاب في سِقَاء، وهذا الدهن يسمَّى:

---

(١) الكماة هي على شاكلة الفطر مشهورة في بلاد الرافدين تأكل مع البيض وهي غنية بمادة الفيتامين ومفيدة للمصابين بضعف الدم. راجع موسوعة طب الأعشاب العربية ج٢ ص١٥٥.

الإهَالة: كحاقن الإهالة، أي أنا خبير بهذا الأمر كخبرة حاقن الإهالة في السِّقَاء، إذ كان الأمر يتطلب تأكد الحاقن تماماً، عن طريق إيلاج إصبعه في الإهالة، أنها قد بردت بحيث لا تفسد السقاءَ بسخونتها.

كما وردت أمثالهم بالزيت: أَوْفَى من كَيْل الزيت.

كذلك كان الشعير من طعامهم، وإن لم يكن من أشهاها إلى نفوسهم: كالشعير: يُؤْكَل ويُذَمّ.

ومن الفاكهة التي ذكرتها الأمثال التمر: «كمُسْتَبْضِع التمر إلى هَجَر.

كقولنا الآن: يبيع الماء في حارة السقائين. وَجَد تمرةَ الغراب.

وقد جاء ذكر الحَشَف، وهو أردأ أصنافه، في مثل آخر: أَحَشَفا وسُوءَ كِيلَة؟

والعنب: إنك لا تجني من الشوك العنب، أَعْجَزُ من مُسْتَطْعِم العنب من الدِّفْلَى، فالدِّفْلَى نبات ورقه أشعر شائك، وطعمه مُرّ.

وكان كثير من أهل الجاهلية يَغْرَمون بالخمر، ويُكْثِر شعراؤهم من التمدح بشربها ويَعُدّونه من علامات الكرم والسيادة، حتى جاء الإسلام وحرّمها تحريماً تاماً.

ومن أمثالهم في أم الخبائث قولهم: ألذّ من مذاق الخمر.

وللأمثال، فضلاً عن الجوانب التي مرت، جانب آخر يمكن أن يُنْظَر إليها منه هو الجانب النفسي والخلقي والاجتماعي:

فالمثَل التالي على سبيل المثال يشير إلى وجه من وجوه الطبيعة

الإنسانية، ألا وهو أهيمة الإيحاء الذاتي في علاج المشاكل، فكثير من الأمور يمكن أن تنحل أو يسهل حلها إذا وضع الشخص في أعتباره أن هناك أملاً كبيراً في التغلب عليها:

أكذب نفسك إذا حَدَّثْتَها، وإلا فليس له مَعْدِّي عن الصبر، وهو الدواء الذي لا بد من تجرعه على مرارته: حيلة من لا حيلة له الصبر.

كما أن طبيعة الاجتماع البشرى تقتضي من الإنسان أن يتغاضى عن بعض حقوقه وأن يكون مرناً مع الآخرين وألا يؤاخذهم بكل صغيرة وكبيرة حتى تسير عجلة الحياة: إذا عزَّ أخوك فهُنْ، إذا رأيتَ الريح عاصفًا فتَطَامَنْ، أيّ الرجال المهَذَّبُ ؟

طويتُه على بُلالته، مع معرفة أن رضا الناس غاية لا تُدْرَك، وأن الطبائع الشخصية عصيّة على التغيير، وبخاصة إذا شاب الإنسان على ما شَبَّ عليه.

ثم هناك العصبية القبلية التي لا يمكن الفَكاك منها، ولذلك قيل في أمثال الجاهلية: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

وهذا القول صححه نبي الإسلام محمد ﷺ عندما حوَّره بعض التحوير فقال: إن نُصْرَتك أخاك ظالماً إنما تكون بمنعه من الظلم [1].

معطياً رسول الله ﷺ هذا المثل بعداً أخلاقياً عظيماً.

كذلك هناك المثل التالي الذي يتعامل مع الطبيعة البشرية تعاملاً مغرقاً في الواقعية بل في اللاإنسانية دون مراعاة المثل الأعلى في قليل أو كثير، وهو: أَجِعْ كلبك يتبعك.

---

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٣٢٥

وفي قولهم: جَلَّى محبٌّ نظرَه.. تعبير عن حقيقة نفسية تشاهَد في المحبين، إذ مهما حاول الواحد منهم إخفاء مشاعره تجاه معشوقه عن الناس فإن عينيه تفضحانه.

وقد قال الشاعر: الصَّبُّ تفضحه عيونه.

كذلك يحسن بالإنسان، إذا أراد أن يظل عزيزاً محبوباً مكرماً، ألا يكثر الزيارة للآخرين مهما كانوا يحبونه ويريدونه ألا يقطع رجله عنهم: زُرْ غِباً تزدد حُبّاً، وألا يُكْثِر كذلك من المُزاح، فإنه سبيل إلى نشوء البغضاء حتى بين المتحابين: المُزَاح لقاح الضغائن.

وفي دنيا الزواج والأسرة تطالعنا الأمثال التالية، وهي مأخوذة من واقع الحياة الذي لا سبيل إلى تغييره ولا نكرانه: زوجٌ من عُود خيرٌ من قُعُود، وهو ما يقال عنه في أمثالنا العامية: ظِلّ رجُل ولا ظِلّ حائط، العَوَانُ لا تُعَلَّم الخِمْرة، بينهم داء الضرائر، إن الحماة:

أُولِعَتْ بالكَنَّة وأُولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّة

أَضَلّ من مَوْؤُودة، وهي البنت الصغيرة التي تُدْفَن حية، وكان بعض الجاهليين يَئِدون بناتهم خوفاً من الفقر أو العار.

على أن هناك مثلاً يبدو أنه يعكس أعتقاداً راسخاً عند العرب منذ قديم الزمان، ألا وهو أن الحظ عليه معوَّل كبير في حياة الإنسان.

ولقد كنت أضيق أشد الضيق بمثل هذا الكلام وأؤكد دائماً أن السعي والتخطيط واليقظة هي عمود كل نجاح، ثم تبين لي أن للحظ دوراً لا يُنْكَر في حياتنا، وأنه قد يرفع أقواماً حقُّهم الاتضاع، ويخفض أقواماً يستحقون كل

خير ورفعة.

ذلك أن أمورنا نحن العرب لم تزل تجري على غير تخطيط، كما أن القيم الإسلامية العظيمة لا يؤخذ بها في كثير من الأحوال، ومن ثم فكثير من الناس لا يحصل على حقه، على حين يَرَوْن من لا يستحقون قد سبقوهم سبقاً فاحشاً دون أدنى مسوِّغ.

ومن هنا صحَّ المثل العربي القديم القائل: جَدَّكَ لا كَدَّكَ أي: أن حظك هو الذي ستكون له الغلبة في نهاية المطاف، وكذلك قولهم: أسْعَ بِجَدٍّ أو دَعْ، وأن من غاب غاب نصيبه.

أما قولهم: لو لكِ عَوَيْتُ لم أَعْوِ.. فيشير إلى ما كان يفعله الرجل الجاهلي في الصحراء حين يكون مسافراً ويأتي عليه الليل فيجد نفسه وحيداً، فيعوى كالكلاب على أمل أن يكون على مقربة من خيمة لبعض الأعراب فتجاوبه كلابهم فيأتنس بهم ويحصل على ما يحتاجه من طعام وشراب عندهم حتى لا يموت جوعاً أو عطشاً.

كما أن المسافر في الصحراء كان يمسك دائماً بعصاً يحمل عليها ملابسه وصرّة طعامه: لو كان في العصا سير.

ومن الطريف أن نجد من الأمثال العربية ما يدلنا على أنهم في الجاهلية كانوا يخوِّفون صغارهم بالذئاب كما يفعل أهل الريف والمناطق الشعبية عندنا الآن إذ يخوِّفون أبناءهم العُصَاة بالعفريت والغول وأبي رجل مسلوخة وما أشبه: لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب.

ﷺ ﷺ ﷺ

الخرافات والأساطير في الجاهلية:

ونختم بما ورد في الأمثال الجاهلية مما كانوا يعتقدونه من خرافات وأساطير، كاعتقادهم في السانِح والبارِح:

فالسانح ما مرّ بك من اليمين إلى اليسار، والبارح ما مرّ من اليسار إلى اليمين، وكانوا يتفاءلون بالأول، ويتشاءمون بالثاني:

من لي بالسانح بعد البارح ؟.

كما كانوا يتشاءمون بالغراب، إذ ارتبط وجوده عندهم بمواقع أطلالهم التي خلّفوها، إذ يلتقط منها ما يكونون قد تركوه وراءهم، فانعقدت الصلة في أذهانهم بينه وبين الفراق، وصاروا يتشاءمون به: أشأم من غراب البَيْن.

ولم يقتصر تشاؤمهم على الحيوان والطير، بل كانوا يستنحسون بعض النجوم أيضاً: أنكد من تالي النجم، وهو الدَّبَران، الذي يتلو نجم الثريا.

كما كانوا يعتقدون في البَلايا، جمع بَلِيَّة، وهي الناقة التي كانوا يربطونها عند قبر صاحبها بعد أن يُغَمّوا عينيها، ثم يتركونها هكذا دون طعام أو شراب حتى تموت، إذ كانت عقيدتهم أنها بهذه الطريقة تكون جاهزة تحت تصرف صاحبها ليركبها يوم القيامة.

المنايا على البلايا، وهو مثل يُضْرَب للقوم الواقعين في كرب لا مخلص منه، فهم يشبهون البليّة، التي لا مفر لها من الموت.

ومن خرافاتهم ما كانوا يقولونه عن السُّلَيْك بن السُّلَكَة، الشاعر الجاهلي الصعلوك المشهور، إذ كانوا يروون أنه ظل يعدو يوماً وليلة كاملين سابقاً فارسين من فرسان الأعداء لم يستطيعا إدراكه قط حتى بلغ منازل قومه وحذرهم هجوماً

وشيكاً من أعدائهم، فأخذوا حذرهم ولم يقدر العدوّ أن يصيب منهم غِرَّة: أَعْدَى من السُّلَيْك.

ومن مبالغاتهم التي تدخل في باب الخرافات قولهم: أَبْصَر من الزرقاء «**وهي زرقاء اليمامة المشهورة، وكانوا يزعمون أنها من قوة البصر وحِدّته بحيث ترى على بعد ثلاثة أيام**».

وهناك مثل يقول: أشأم من الزُّمَّاح، «**وفيه إشارة إلى طير كان يقع على بيوت ناس من أهل يثرب ويأكل من تمرهم ثم يطير فلا يعود إلى العام التالي، فرماه رجل منهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فلما مر العام لم يبق ممن أكل من لحمه أحدٌ حيًّا**».

أَعْمَرُ من حَيَّة، «**لأنهم كانوا يظنون أنها لا تموت أبداً إلا إذا قتلها إنسان، وإلا فإنها إذا كبرت عادت فصغرت حتى تكبر ثم تعود فتصغر... وهكذا دواليك!**».

أَعْمَرُ من نَسْر، أو من قُرَاد، «**إذ كانوا يؤمنون أن الأول يُعَمَّر خمسمائة عام، والثاني سبعمائة**».

هذا، وهناك كتب خاصة بالأمثال ألفها بعض من كبار الكتاب العرب القدماء، ومنهم صُحَار العبدي وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى وثعلب والمفضَّل الضَّبِّيّ وأبو هلال العسكري والزمخشري والميداني.

وهي كتب تُعْنَى بإيراد أكبر عدد ممكن من الأمثال العربية القديمة وشرحها وتفسير ما يحتاج من ألفاظها وتراكيبها وعباراتها إلى تفسير، فضلاً عن إيراد قصة المثل إن كانت وصلتهم، وقد تكون هذه القصة حقيقية أو خيالية، وإن

كانوا في بعض الأحيان يعلنون عن عجزهم عن معرفتها كما فعل أبو هلال العسكري مراراً، إذ قال مثلاً عند تعرضه لقولهم: أَبْدَح وبُبَيْح.

يقولون: جاء بأبدح وبيبح، إذا جاء بالباطل.. ولم يُعْرَف أصله، أي: أن قصته لم تصله.

أما في شرحه للمثل القائل: بعينٍ ما أَرَيَنَّك.

فقد علق قائلاً: معناه: أعْجَلْ. وهو من الكلام الذي قد عُرِف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه.

وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكمالها، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء.

وفي تعليقه على المثل التالي: أحمق من راعى ضأن ثمانين.

نراه يقول: ولا أدري لم خُصَّت بالثمانين هنا...إلخ.

ومن هنا نرانا لا نوافق على ما قاله بروكلمان [١] في الأمثال من أن من عُنُوا بجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة في حيرة من تفسيرها وإيضاحها وهذا النقد ما فيه من سخرية مبطنة بل نؤكد أن هذا الكلام غير صحيح لعدة أسباب:

الأول: أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يوردون هذه القصص دائماً كما قلنا آنفاً.

والثاني: أنهم ليسوا هم الذين ألّفوا هذه القصص، بل كانوا مجرد نقلة لها حسبما وصلت إليهم.

---

(١) كارل بروكلمان- تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٢١١ ترجمة د. عبد الحليم النجار، ط ٤، دار المعارف، ١٢٩.

الفصل الثالث

أسجاع الكُهّان

أسجاع الكُهّان

الكُهّان العرب هم طائفة من رجال الدين كانوا يقومون على سِدَانة معابد الأوثان في الجاهلية، وكان العرب الوثنيون يلجأون إليهم في حسم ما ينشأ بينهم من منافرات أو خلافات قبلية أو أسرية أو فردية، أو تأويل ما يقع لهم في نومهم من رُؤًى تحتاج إلى تعبير، أو مساعدتهم على معرفة ما يخبئه الغيب من أحداث أو أشياء.. وما إلى ذلك مما كانوا يحصلون على جُعْلٍ في مقابله.

وكان هؤلاء الكهان يجيبون على ما يوجَّه إليهم من استفسارات بكلام مسجوع يُرَاعَى فيه عادةً أن يكون موجَزاً غامضاً يحتمل وجوها متعددة من التفسير، فضلاً عن احتوائه على بعض الغريب من اللفظ، بحيث يستطيع الكاهن عند اللزوم أن يقول إنه لم يقصد هذا المعنى مثلاً بل ذاك، ومن ثم لا يَظْهَر لقُصّاده وطالبي عونه أنه يخطئ كغيره من الناس وأنه ليس بينه وبين عالم الغيب أي إتصال.

وقد وردت أقاويل منسوبة إلى هؤلاء الكهان في مناسبات وقضايا مختلفة كما في الخبر المروي عن الكاهن الخُزَاعِيّ، الذي نَفَّرَ بين هاشم جد النبي ﷺ وأُمَيّة بن عبد شمس، وجاء فيه: وَلِيَ هاشمٌ بعد أبيه عبدِ مناف ما كان إليه

من السِّقَاية والرِّفَادة فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامه، وكان ذا مال، فتكلَّف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشَمِت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسِنّه وقَدْره، فلم تَدَعْه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سُودِ الحَدَق ينحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين.

فرَضِي بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جَدّ عمرو بن الحَمِق «**الصحابي المعروف**»، ومنزله بعُسْفان «**بين مكة ويثرب**».

وكان مع أمية همهمة بن عبد العُزَّي الفِهْرِي، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما أهتدى بعلم مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةَ إلى المآثر، أوّلٌ منه وآخِر، وأبو همهمة بذلك خابر، فقضى لهاشم بالغلبة وأخذ هاشمٌ الإبلَ فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشأم عشر سنين.

فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية.

ومنه كذلك ما قيل عن تكهُّن عوف بن ربيعة الأسدي بمقتل حُجْر بن الحارث، حيث تجري القصة على النحو التالي: كان حُجْر بن الحارث أبو امرئ القيس ملكَ بني أسد، وكان له عليهم إتاوة كلَّ سنة لما يحتاج إليه.

فبقي كذلك دهراً، ثم بعث إليهم من يَجْبِي ذلك منهم، وحُجْرٌ يومئذ بتِهَامة، فطردوا رسله وضربوهم، فبلغ ذلك حُجْراً فسار إليهم فأخذ سَرَوَاتِهم وخِيَارَهم وجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا: عبيدَ العصا، وأباح الأموال وصيَّرهم إلى تِهَامَة وحبس جماعة من أشرافهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال

شعراً يستعطفه فيه، ومنه قوله:

أنت المَلِيك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

فرقَّ لهم وعفا عنهم وردّهم إلى بلادهم. فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي، فقال لهم: يا عبادي.

قالوا: لبيك ربَّنا. فقال: مَن الملك الضَّلْهَب (الشديد)، الغلاّب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الربرب (أي قطيع بقر الوحش)، لا يقلق رأسه الصخب، هذا دمه ينثعب (يسيل)، وهو غدًا أول من يُسْتَلَب ؟

قالوا: ومن هو ربَّنا ؟

قال: لولا تَجَيُّشُ نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحية (أي علانية).

فركبوا كل صَعْبٍ وذَلُول حتى بلغوا عسكر حُجْر فهجموا عليه في قُبَّته فقتلوه».

ثم هذا الخبر الذي يتحدث عن تعرُّض هند بنت عتبة للشك في شرفها من زوجها الفاكه بن المغيرة لريبةٍ ظنَّها فيها، فحاكمه أبوها إلى كاهن من كهان اليمن قضى ببراءتها فعادت مرفوعة الرأس رافضة أن تظل على ذمة الفاكه بعد الذي كان منه في حقها:

كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحدَ فتيان قريش، وكان قد تزوج هند بن عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن، فقال يوماً في ذلك البيت وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة فجاء بعض من كان يغشى البيت، فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنها، فإستقبله الفاكه بن المغيرة فدخل على هند

وأَنَبَها وقال:

مَنْ هذا الخارج من عندك ؟

قالت: والله ما انتبهت حتى أَنْبَهْتَني، وما رأيت أحدا قَطّ.

قال: الحقي بأبيك.

وخاض الناس في أمرهم، فقال لها أبوها: يا بُنَيَّة، العارَ وإن كان كذباً.. بُثّيني شأنَك، فإنْ كان الرجل صادقاً دسَسْتُ عليه من يقتله فيقطع عنك العار، وإن كان كاذباً حاكمْتُه إلى بعض كُهّان اليمن.

قالت: والله يا أَبَتِ إنه لَكَاذب.

فخرج عتبة فقال: إنك رميتَ ابنتي بشيء عظيم، فإما أن تبيّن ما قلتَ، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن.

قال: ذلك لك.

فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ونسوة من بني مخزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف.

فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيَّر وجه هند وكَسَفَ بالُها، فقال لها أبوها:

أَيْ بُنَيَّة، أَلاّ كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا ؟

قالت: يا أبت، والله ما ذلك لمكروه قِبَلِي، ولكنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب، ولعله أن يَسِمَني بسِمَةٍ تَبْقَى على ألسنة العرب.

فقال لها أبوها: صَدَقْتِ، ولكني سأَخْبُره لك.

فصَفَّر بفرسه، فلما أَدْلَى عَمَدَ إلى حَبّةِ بُرٍّ (قَمْح) فأدخلها في إحْليله ثم

أَوْكَى (رَبَط) عليها وسار، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال له عُتْبَة: إنا أتيناك في أمرٍ، وقد خبأنا لك خبيئة، فما هي ؟

قال: بُرَّةٌ في كَمَرَة.

قال: أريد أَبْيَنَ من هذا.

قال: حبّة بُرٍّ في إحليل مُهْر.

قال صَدَقْتَ، فأنظر في أمر هؤلاء النسوة.

فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول: قومي لشأنك.. حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال: أنهضي غير رَقْحَاءَ (فاجرة) ولا زانية، وستلدين مَلِكاً يسمَّى: معاوية.

فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنثرت يده من يدها وقالت: إليك عَنِّي. والله لأَحْرِصَنَّ أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت له معاوية [١].

ومن ذلك أيضاً ما رُوِيَ عن سَطِيح الذئبي الغَسّاني من أنه لما كان ليلةُ وُلِد النبي أرتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان أوشك أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة.

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص٢١٦ - لابن عبد ربه

فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني.

قال له: وما رأيتَ ؟

قال: رأيتُ إبلاً صِعَاباً، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا.

قال: رأيتَ عظيماً، فما عندك في تأويلها ؟

قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلاً من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان.

فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سَطِيح.

قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد أُحْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنْ ... يا فاضل الخطة أَعْيَتْ مَنْ ومَنْ

أتـاك شيخ الحي من آل سَنَنْ ... أبيض فضفاض الرداء والبـدنْ

رسول قَيْل العجم يَهْوِى للوَثَنْ ... لا يرهب الرَّعْد ولا رَيْب الزمـنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أي سريع)، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان.

رأي إبلا صِعَابا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاماً، ولا الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آتٍ آتٌ...إلخ.

أما في القصة التالية فنرى الكاهن يحذِّر بني الحارث بن كعب من الإغارة على بني تميم، وإلا تعرضوا للهزيمة المُرّة على أيديهم:

كان بنو تميم قد أغاروا على لَطِيمَةٍ (قافلة) لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فأوقع كسرى بهم وقتل المقاتلة، وبقيت أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها.

وبلغ ذلك بني الحارث بن كعب من مَذْحِج، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اغتنموا بني تميم.

فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من زيد وحزم بن ريان في عسكر عظيم وساروا يريدون بني تميم، فحذَّرهم كاهن كان مع الحارث، واسمه سلمة بن المغفل، وقال: إنكم تسيرون أعقاباً «**أي بعضكم في إثر بعض**»، وتغزون أحباباً، سعداً ورَبَاباً، وتَرِدُون مياها جِبَاباً «**جمع جُبّ، وهو البئر**»، فتَلْقَوْن عليها ضِراباً، وتكون غنيمتكم تراباً، فأطيعوا أمري ولا تغزوا تميماً.

ولكنهم خالفوه وقاتلوا بني تميم فهُزِموا هزيمة نكراء.

ولا شك أن أي عاقل، حتى لو لم يَدِنْ بالإسلام، سينُكِر ما جاء في مثل تلك الأخبار من أن هذا الكاهن أو ذاك كان يستطيع أن يعلم الغيب، إذ الغيب

شأن من شأن الله عز وجل لا يمكن أحداً من عباده أن ينفذ من خلال حُجُبه إلا إذا أوحى الله بشيء من ذلك لنبي من أنبيائه.

ونبينا محمد بن عبد الله ﷺ مأمور في القرآن بأن يقول: وعنده (أي عند الله) مفاتح الغيب، لا يعلمها إلا هو، قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله، قل: ما كنتُ بِدْعاً من الرسل، وما أدري ما يُفْعَل بي ولا بكم، ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِيَ السوء، عالِم الغيب (أي الله سبحانه) ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۝ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾. إلخ.

فماذا يكون الكاهن بالنسبة للنبي، وبخاصة إذا علمنا أن الكهنة كانوا يزعمون أنهم إنما يستعينون في مهمتهم الكهنوتية بالشياطين، ولم يكن ينزل عليهم الوحي من السماء من لدن الله تعالى ؟

بل إن الكافر بالله لا يمكنه، لو أصغى لصوت العقل والمنطق والواقع، أن يصدّق بشيء من هذا السخف الساخف الذي لا يجوز إلا في عقول الجهلة والطَّغام!

وعلى هذا فنحن مضطرون إلى أن نرفض ما ورد أيضاً في تلك الأخبار ذاتها من كلام منسوب للكهنة في هذه الظروف من مثل:

عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أي سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان.

رأى إبلا صِعاباً، تقود خيلاً عِراباً، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في

البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفُرْس مُقَاماً، ولا الشام لسطيحٍ شاماً.

يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت، أو أنهضي غير رَقْحَاءَ ولا زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى:

معاوية، لأنه إذا كانت الواقعة لم تحدث أصلاً فبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الكلام المتصل بها قد قيل !

أما قول الكاهن الذي نفَّر بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس فهو لا يزيد عن أن يكون حُكْماً في قضية اجتماعية ليس إلا، ولا يدخل في باب الإنباء بالغيب.

إذن فالباحثون الذين ينكرون صحة هذه الأسجاع ويَرَوْن أنها من صنع المتأخرين ليسوا على خطأ مطلق، وإن قام رَفْضُ الدكتور شوقي ضيف [1] لها على أساس طول الزمن المنصرم ما بين صدور الأقاويل المنسوبة إلى أولئك الكهان والوقت الذي سُجِّلَتْ فيه وهو سبب غير كاف كما قلنا عند حديثنا عن الأمثال، إذ إن الذاكرة العربية مشهورة بالحفظ من كثرة ما كان أصحابها يعتمدون عليها ويستعملونها لانتشار الأمية بينهم، مما من شأنه أن يجعلها أَحَدّ وأنشط من الذاكرة التي لا يستخدمها أهلوها على هذا النطاق الواسع.

كما أن هذه الأقاويل، حسبما بيّنا، تقوم على السجع، وهو ما يساعد على المزيد من الحفظ، فضلاً عن أنها ليست من الطول ولا ما احتفظت به

---

(١) العصر الجاهلي، ط٧، دار المعارف، ٢٢٤.

الكتب من نصوصها من الكثرة بحيث تسبب للذاكرة عَنَتًا في الاحتفاظ بها، إلى جانب أعتقاد الجاهليين أنها حق لا ريب فيه، واستطراف المسلمين لها لمخالفتها لما يعتقدون ولصلاحيتها هي ومن كانوا ينطقون بها لأن تكون موضوعاً للسخرية والتهكم وفرصة لعرض عقيدة الدين الجديد والمقارنة بينها وبين تلك السخافات الشيطانية المتخلفة، وهو ما يفسّر، في ناحية منه على الأقل، اشتمال كتب الأدب والتاريخ على هذه الطائفة من الأقاويل المنسوبة إلى الكهان رغم أن بعضها، كما رأينا بكل وضوح، لا يمكن أن يكون صحيحا!

وقد يُفْهَم من كلام بعض الدارسين أن هذه الأقاويل هي أساس السجع أو أنها كانت النصوص المسجوعة الوحيدة في النثر الجاهلي، فقد كتب مثلاً المستشرق الألماني كارل بروكلمان أن السجع هو القالب الذي كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم [1].

السجع في عصر الإسلام:

يقول الدكتور عبد الستار فوزي: أن تلك الأسجاع حتى البقية التي استُعْمِلت في عصر الإسلام الأول قد نبعت جميعاً من سجع الكهان الجاهليين يوم كانت تلك الأنغام المتوازنة ضرورية لتمثيل الكاهن ولا غنى عنها لتصوير شخصيته وإثبات علمه وتحديد ما يصدره من أقضية وأحكام، وما يشيع عنه

(١) تاريخ الأدب العربي، ١، ٥١

من وحي وإلهام [١].

كما ورد في حديث عن السجع وسيطرته على النثر الفني في العصور الإسلامية يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: أن هذا الاتجاه هو إمتداد لما عُرِف في الجاهلية قديماً باسم سجع الكهان [٢].

وإن كان في موضع آخر قد أضاف (الأمثال) أيضاً إلى سجع الكهان، وذلك في النص التالي الذي يَعْرِض فيه لأوّليّة الشعر العربي وكيفية نشوئه، إذ قال:

هناك فرض راجح حتى الآن يذهب فيه أصحابه من علماء تاريخ الأدب إلى أن الشعر العربي قد نشأ في جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور العبارات المسجوعة التي كان يستخدمها الكهنة في رُقَاهم وتنبؤاتهم، والعبارات الأخرى المسجوعة في بعض الأحيان التي كان تجرى على الألسنة مجرى المثل [٣].

وعلى كل حال فليس بين أيدينا ما يبين متى بدأ السجع في النثر العربي، وهل يرجع فعلاً إلى سجع الكهان وحده أو إليه هو والأمثال فقط كما في النص الأخير أو هو أمر سابق على ذلك، فضلاً عن أن خُطَب الجاهليين ومنافراتهم وخصوماتهم كانت (كما هو معروف) مسجوعة في غير قليل من الأحيان.

وعلى هذا فالتفكير العلمي الحذر يقتضينا أن نكون على ذكر من هذه الحقيقة قبل أن نصدر حكماً كهذا فنضلّ في بَيْدَاء الوهم.

---

(١) عبد الستار فوزي، السجع وأطوار استعماله في أدب العرب ص ٣٢. الشركة المركزية للطباعة والإعلان، بغداد، ١٩٦٦م.

(٢) د. عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية ص ٤٣ دراسة في نشأة الآداب والمعارف العربية وتطورها، ط٥، أبو للو للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، .

(٣) د. عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية ص ٩.

كل ما نستطيع أن نقوله هو أن السجع كان معروفاً للجاهليين وأنه كان مستعملاً لا في كلام الكهان والكاهنات وحده، ولا في كلامهم والأمثال فقط، بل في الخُطَب والمنافرات والخصومات أيضاً، إذ هو يلبي حاجة فطرية في النفس، فالكلام الموسيقى المتوازن على اختلاف ألوانه هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم، والسرور والحزن، والرضاء والغضب، والبسط والقبض، تبعثه في يسر من أعماقها سَيّالاً متداركاً كأنما تجد في تناغم ألفاظه ورنين أجراسه وتعاطف حروفه متنفَّساً لهذا الجَيَشَان العنيف وتطبيقاً لهذه الثورة الصاخبة [١].

وليس ثمة ما يلجئنا إلى القول بأن السجع نشأ في أحضان السِّحْر والكهانة والمعابد وما إلى ذلك كما يردد بعض الدارسين العرب تأثراً بما يقوله المستشرقون في هذا المجال، لأن ما كان مرتبطاً بالفطرة لا يحتاج إلى سحر أو كهانة أو معابد، وبخاصة أننا نعلم ما تتميز به اللغة العربية من الموسيقية والرنين والتوازن مما يجعلها بيئةً جِدَّ مناسبةٍ لازدهار السجع والشعر.

ꕥ ꕥ ꕥ

السجع والخطباء:

السجع إذن لم يكن مقصوراً على الكهان، بل استخدمه الخطباء والمتنافرون والمتفاخرون وضاربو الأمثال أيضاً، ذلك أنه مجرد أداة، مَثَلُه في هذا مَثَلُ الجمل والسيف والقلم وغيرها من الوسائل والأدوات التي يصطنعها البشر في حياتهم، لا يحمل أية دلالة عقيدية أو أخلاقية في حد ذاته، وبخاصة

(١) علي الجندي، صُوَر البديع- فن الأسجاع، دار الفكر العربي ص ٢١١ ٩

إذا تنبهنا إلى أنه في القرآن غيره في الكهانة:

فهو في الكهانة يُسْتَخْدَم في الكذب والإيهام بالتنبؤ بالغيب وفي التنفير بين المتنافسين على السمعة وما أشبه، على حين أنه في القرآن يستعمل في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والحث على البر والعدل والصدق والعلم والأخوة والتراحم والتعاون والمساواة ونبذ الربا والقمار والخمر.

إلى آخر ما نعرف من القيم الكريمة النبيلة التي رفع لواءها القرآن الكريم والتي تتعارض مع دعاوى الكهانة وخرافاتها.

ثم إن القرآن الكريم قد نزل بنفس اللغة التي كان الكهان يتخذونها، وهي اللغة العربية، كما أن الرسول الأعظم كان يمارس حياته، فيما عدا كهانتهم ووثنيتهم، مثلما كانوا يمارسون حياتهم، فكان يأكل ويشرب ويتزوج مثلما كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون، وكان يركب الناقة والحصان مثلما كانوا يفعلون، فهل يعاب لأنه لم يخالفهم في أسلوب حياته ؟ لكن كيف ذلك ؟

وفي القرآن نقرأ أن كتاب الله قد: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وهذا أمر طبيعي حتى يفهمه العرب الذين أتجه إليهم القرآن أول ما أتجه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، والسجع جزء من هذا اللسان الذي نزل به القرآن، وهو عنصر جذاب لأولئك القوم، فأين وجه الحرج في أن يستعين به كِتَاب الدعوة الجديدة حتى تنصت إليه الأسماع وتَصْغُو له القلوب والعقول ؟

الدكتور جواد علي الذي علّق على أسلوب المفسرين في توجيه قَسَم القرآن بالتين والزيتون وما إلى ذلك قائلاً:

وفي القرآن قَسَمٌ بالسماء وبالعاديات وبالتين والزيتون وبغير ذلك ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب، ففسروا وتأولوا. ولو فكروا أن هذا النوع من القسم هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الإسلام، وأن القرآن إنما نزل بلسان العرب، ولذلك أتبع طريقتهم في القسم لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم، عرفوا السبب. ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القَسَم بهذه الأشياء، يُقْسِمون بها كما يُقْسِم المتحضر بأعز شيء عنده[1].

ونحن الآن مثلا قد تضطرنا الظروف في بعض الأحيان إلى الصلاة في مساجد تضم أضرحة لمن يُسَمَّوْن: أولياء الله، لكن المهم أننا لا نعتقد في شيء من هذا السخف المتخلف، والعبرة كما يقولون بالنية والغرض.

كما أن المسلمين الأوائل قد أدَّوُا العُمْرَة في السنة التالية لغزوة الحديبية حين كانت الكعبة لا تزال تعجّ بالأوثان، فهل يمكن أتهامهم بأنهم كانوا يمارسون طقوساً وثنية ؟

بل إن الحجاج المسلمين كانوا وما فتئوا يأتون من الطقوس ما كان الوثنيون يمارسون بعضه مما بقي من حج خليل الرحمن عليه السلام، لكن كما قلت: العبرة بالنية، إذ ينبغي ألا ننسى أن الجاهليين الوثنيين كانوا يحتفظون رغم وثنيتهم ببعض شعائر الحج الصحيحة التي ورثوها عن أبيهم إبراهيم عليه السلام، وهو ما احتفظ به الإسلام أيضاً في هذه العبادة.

ومثله السجود، الذي كان بعض الوثنيين يؤدونه للشمس وللقمر، ويؤديه المسلمون أيضاً، لكنْ لله تعالى لا لهذين الجِرْمَيْن السَّمَاوِيَّيْن.. وهكذا.

---

(١) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦٦ الفصل الخاص بالنثر، د. جواد علي .

إن السجع مجرد أداة أو وسيلة، والأداة لا تعاب في حد ذاتها، بل للغرض السيء الذي تستعمل فيه، اللهم إلا إذا كانت مرتبطة ارتباطاً لا ينفك بعقيدة منحرفة أو خلق كريه، وأني ذلك في السجع ؟

وبالمثل كان سجع الكهان أيضاً يدور في فَلَك الوثنية ويتم في بيوت الأوثان، بخلاف السجع في القرآن الكريم، الذي حارب الوثنيةَ وقام الرسولُ الأكرم الذي نزل عليه ذلك الكتاب الكريم بهدم أوثانها وبيوتها.

كما كان الكهان يتقاضَوْن أجراً على ما يقولون، أما النبي فلم يكن يمد يده إلى مال أحد، وآيات القرآن الكريم واضحة تمام الوضوح.

قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِنْ هُوَ إِلاَ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى رَبِ الْعَالَمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجرٍ إِلاَ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

قال تعالى: ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾.

ليس هذا فحسب، بل لقد حرّم الإسلام أيضاً عليه وعلى أهل بيته عليهم السلام جميعاً أن يأخذوا شيئاً أي شيء من أموال الصدقات، وكلنا يعرف أنه نبي الرحمة كان يتشدد في هذا أيما تشدد !

❀ ❀ ❀

الإسلام يحارب الكهان:

ولقد حارب الإسلام والرسول الأكرم الكهانة والمتكهنين حرباً شعواء، وأبدى رسول الله امتعاضه ونفوره الشديد من طريقتهم المتكلفة الغامضة في

التسجيع، فكيف يقال إنه قد جرى في رِكَابهم ونَهَجَ نَهْجَهم كما يردد بعض الرُّقَعَاء ؟

ومصداقاً لهذا نلفت النظر إلى القصة التالية وما فيها من دلالات على موقف الرسول الأكرم من سجع الكهان أيضاً لا من الكهان أنفسهم فقط.

يروى ان هناك امرأتان اقتتلت من هُذَيْل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله أن دية جنينها غُرّة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورّثها ولدَها ومن معهم.

فقال حمل بن النابغة الهُذَلِيّ: يا رسول الله، كيف أغرم من لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا أستهلّ ؟

فمثل ذلك يُطَلّ.

ففال رسول الله ﷺ: إنما هذا من إخوان الكهان [1].

من أجل سجعه الذي سجع، إذ كان كهان الوثنية، كما سبق بيانه، يخدعون الناس ويشيعون الوهم في العقول ويصطنعون أسلوباً متكلفاً لا يبغي كشف الحق بل يمكّن للباطل تمكيناً، فأراد الحبيب المصطفى من المسلمين أن ينبذوا هذا الأسلوب العفن الضار.

إنهما إذن طريقان مختلفان، وأسلوبان في أستعمال السجع لا يلتقيان !

ثم لو كان رسول الله ﷺ يجرى على سُنّة الكهانة والمتكهنين كما يزعم الزاعمون، فكيف يفسر المتنطعون الذين يتهمونه هذا الاتهام الأرعن أنه قد

(١) صحيح البخاري حديث ٣١٢٤

حورب من قومه، على حين أن الكهان كانوا محطّ رهبة ورجاء من هؤلاء القوم، ولم يكن أحد من العرب ليفكر في مس شعرة من شعرهم ؟

بل كيف يفسرون معاداة الكهان له عند إعلانه دعوته لو كان واحداً منهم، وهم الذين لم نسمع قط أنهم عادَوْا أي واحد من أبناء مهنتهم ؟

ليس ذلك فحسب، بل إننا لم نسمع أن أحداً منهم أنهم الرسول الأعظم رغم هذا بأنه قد أخذ منهم أسلوبه، فكيف نفسر هذا أيضاً ؟

صحيح أن قومه قد أتهموه بأنه كاهن، لكنهم أتهموه كذلك بأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه ساحر، وكل تهمة من هذه تناقض التهمة الأخرى، كما أن أيّـاً منها لا ينطبق على حالته، مما يدل على أنها مجرد دَعَاوَى ومزاعمَ كاذبةٍ متخبطةٍ مبعثها الحقد والغيظ.

وأكبر دليل على بطلان هذه الأقاويل أنهم هم أنفسهم قد أنتهَوْا إلى الإيمان به لاحِسين كل تلك الاتهامات ومكذّبين أنفسهم بأنفسهم! بل لقد عرضوا عليه أنه إن كان الذي يأتيه رَئِيًّا من الجن فإنهم على استعداد لبذل كل ما يملكون في تطبيبه حتى يَشْفُوه منه، وكان جوابه التمسك بما يدعو إليه وعدم الالتفات إلى هذه السخافات والمزيد من التفاني في دعوتهم إلى نبذ الأوثان وسبيل الكهّان.

وقد انتهى هذا كله، كما هو معروف، بأَنْ دخل الجميع في دين الله على بكرة أبيهم بما فيهم الكهان أنفسهم وأهلوهم، فعلام يدل هذا أيضاً لو كان عند من يتهمونه مثل هذه التهمة عقول تفكر وتبصر ؟

إن القرآن حملة مستمرة على الشيطنة والشياطين، فبالله كيف يَسُوغ في

منطق العقل أن يقال إنه ﷺ كان يستعين بالشياطين؟

❀ ❀ ❀

أعداء الإسلام في العصر الحديث:

ولقد أكثر أعداء الإسلام في العصر الحديث من المستشرقين والمبشرين ومن يلوذ بهم ويردد مزاعمهم من الكلام في أقسام القرآن الكريم التي استُهِلَّتْ بها بعض السور المكية مثل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ، ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

بل عجبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شيء عجيب.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ﴾.. إلخ، قائلين إن النبي إنما يقلد الكهان في طريقتهم بالقَسَم بمظاهر الطبيعة كالذي رُوِيَ عن الكاهن الخزاعي من قوله:

والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما أهتدى بعَلَم مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر -.

والذي رُوِيَ عن سواد بن قارب الدَّوْسِيّ وقوله:

والسماء والأرض، والغَمْر والبَرْض، والقَرْض والفَرْض، إنكم لأهل الهضاب الشُّمّ، والنخيل العُمّ، والصخور الصُّمّ، من أَجَاء العيطاء، وسَلْمَى ذات الرقبة السطعاء، أُقْسِم بالضياء والحَلك، والنجوم والفَلَك، والشروق والدَّلَك، لقد خبأتَ بُرْثُن فرخ، في إعليط مَرْخ، تحت آسرة الشَّرْخ، والسحاب والتراب،

والأصباب والأحداب، والنَّعَم الكُثاب، لقد خبأتَ قُطَامة فَسيط، وقُذّة مَريط، في مَدَرَةٍ من مَدِيّ مَطيط، أُقْسِم بالسَّوَام العازب، والوقير الكارب، والمجد الراكب، والمُشيح الحارب، لقد خبأتَ نُفَاثة فَنَن، في قطيع قد مَرَن، أو أديم قد جَرَن، أُقسِم بنَفْنَف اللُّوح، والماء المسفوح، والفضاء المَندوح، لقد خبأتَ زَمَعَةَ طَلاً أعفر، في زِعْنِفَةِ أديم أحمر، تحت حِلْس نِضْو أدبر، والناظر من حيث لا يُرَى، والسامع قبل أن يناجَّي، والعالم بما لا يُدْرَى، لقد عَنَّتْ لكم عُقَابٌ عجزاء، في شغانيب دَوْحَةٍ جرداء، تحملَ جَدْلا، فتماريتم: إما يَدًا وإما رِجْلاً.

وكالذي رواه الجاحظ لعُزَّى سَلَمَة من أنه قال:

والأرض والسماء، والعُقَاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نَفَّرَ المجدُ بني العُشَراء، للمجد والسناء.

وكالذي جاء في حديث زبراء الكاهنة مع بني رئام من قضاعة، إذ قالت:

واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمُزْن الوادق، إن شجر الوادي ليَأْدُو خَتْلاً، ويَخْرُق أنيابًا عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْد لَيُنْذِر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً.

وأخيراً كالذي نُسِبَ إلى سلمى الهمدانية وما أبدته من رأى في حريم المُرَادِيّ: والخَفْو والوميض، والشفق كالإحْريض، والقُلّة والحضيض، إن حريمًا لمَنَيع الحِيز، سيدٌ مَزِيز، ذو معقل حَرِيز، غير أني أرى الحُمَّة ستظفر منه بعَثْرة، بطيئة الجَبْرة [1].

---

(١) ويجد القارئ الكريم هذه النصوص تحت عنوان: خُطَب الكُهّان.. وخُطب الكواهن من كتاب: جمهرة خُطَب العرب. للأستاذ أحمد زكي صفوت.

ونظرة سريعة إلى هذه الأقسام تنبئنا أنها في التنبؤ بالغيب أو في التنفير بين المتنافسين على الافتخار بحسن الأحدوثة بين الناس، على حين أن أقسام القرآن الكريم تهدف إلى تأكيد حقيقة اليوم الآخر أو صدق الوحى القرآني أو ضلال الشرك والمشركين وأشباه ذلك.

ꕥ ꕥ ꕥ

القرآن والقسم:

وهذا لو أغضينا البصر عن سخف التنفير ومخالفته لأصول الاجتماع الصحيحة التي ينبغى أن تقوم على الإعلاء من شأن العمل النافع ووجوب التجرد في القيام به بحيث يضع فاعلُه مصلحةَ المجتمع والبشرية نُصْبَ عينيه وينتظر الأجر والمثوبة من الله ولا تشغل نفسَه الرغبةُ في الاشتهار بين الناس كي يتحدثوا عنه بالحق أو بالباطل، وكذلك لو جارينا الاعتقاد الجاهلي الأخرق وصدَّقنا أن الكهان يستطيعون أن يتنبأوا فعلا بالغيب، وهو ما سبق أن قلنا إنه أمر مستحيل، إلا أننا نجري هنا مع المتَّهمين إلى أقصى حد حتى نبين لهم ولمن يقرأون ما يكتبون أن كلامهم لا يقوم على أي أساس.

كما أن الأقسام الخاصة بالتراب والأصباب والأحداب والنَّعَم والسحاب والغمام الماطر والمُزْن الوادق والصقعاء والعُقَاب والذئب والغَمْر والقَرْض والفَرْض والبَرْض واللوح الخافق ونَفْنَف اللُّوح والماء المسفوح والفضاء المندوح والخَفْو والوميض والشفق الذي يشبه الإحريض والقُلّة والحضيض والحَلَك والفَلَك والدَّلَك والسَّوَام العازب والوقير الكارب والمجد الراكب والمُشِيح الحارب والناظر من حيث لا يُرَى والسامع قبل أن يناجَي والعالم

بما لا يُدْرَي هي أقسام لم ترد في القرآن الكريم.

وفي المقابل فإن القَسَم بالقرآن المجيد والقرآن ذي الذِّكْر والكتاب المبين والكتاب المسطور في رَقٍّ منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور والصافّات صَفًّا والذاريات ذَرْوًا والمرسَلات عُرْفًا والنازعات غَرْقاً والليالي العشر والشَّفْع والوَتْر وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى والضُّحَى والتين والزيتون وطُور سِينِين وهذا البلد الأمين والعاديات ضَبْحاً هو أيضاً قَسَم لا تعرفه النصوص المنسوبة إلى أولئك الكهان، مثلما لا تعرف التركيبَ القرآني التالي:

لا أُقْسِم بكذا، ولا مجيء عبارة.. هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْر ؟

أو وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم، أو بل الأمر كذا وكذا..

بعد القَسَم، أو مجيء حرف هجائي أو أكثر قبله:

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

قال تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ثم إن النصوص المتضمِّنة لأقسام الكهان تتميز بأنها قصيرة النفس، إذ سرعان ما ينتهي النص الذي وردت فيه هذه الأقسام عقب الفراغ من نبأ الغيب المزعوم أو التنفير بين المتخاصمين مما لا يستغرق إلا بضع جمل قصيرة ليست بذات عدد، على حين أن السورة القرآنية تمضى بعد ذلك متناولةً أمور العقيدة الجديدة وقيمها الأخلاقية وما إلى هذا، وقد تطول طولاً كبيراً لا تناسُب بينه وبين نصوص الكهانة المدّعاة.

وهذا كله إذا لم نقل إن هذه الأقسام الكهنوتية إنما صيغت على غرار أقسام القرآن الكريم:

إما ممن صنعوها في العصر العباسي ونسبوها زورا للجاهليين.

وإما من كهانٍ صاغوها بعد نزول القرآن فوضعوه أمامهم وأحْتَذَوْه، أو إن الكهان السابقين على نزول القرآن إنما كانوا يقلّدون، فيما صحت نسبته لهم، أسلوباً من أساليب القَسَم كان مستعملاً فيما نزل من وحي على الأنبياء العرب السابقين كهُودٍ وصالحٍ وشُعَيْب عليهم السلام.

والعجيب أن كاتب مادة (سَجْع) في الطبعة الجديدة من:The Encyclopaedia of Islam، (دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية) لا يختلف مع الباحثين الآخرين في وَسْم كلّ ما نُسِبَ للكهان من أقوالٍ بأنها لا تبعث على الاطمئنان، ومع هذا يتهم الرسول الأكرم بأنه يقلد في قرآنه سجع أولئك الكهان، وإن أضاف أنه قد عمل في ذات الوقت على أن يصبَّ في هذا القالب الكهنوتي القديم المبادئ الجديدة التي أتى بها!

أي كما يقال في المثل: عَنْزَة ولو طارت !

وإني لأستعجب أن يقرأ بعض الناس القرآن الكريم ثم يقولوا بعد ذلك إنه من كلام الكهان، أو إنه تقليد لكلام الكهان!

إن هذا الادعاء لهو دليل على أن صاحبه كاذب بالثلث أو منكوس العقل مطموس البصيرة.

ولسوف أورد هنا نص ثلاث سور صغيرة هي البلد، والليل، والضحى، وأترك القارئ الكريم أياً كان دينه ومذهبه وجهاً لوجهٍ أمامها ليسأل ضميره بصدق وأمانة:

أَمِثْل هذا الكلام هو من وحي الشياطين أو يجري من جاء به على سُنّة الشياطين ؟

قالل تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾.

قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾.

قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

والله إن كان هذا الكلام النبيل الكريم هو من كلام الكهان، ومن وحي الشيطان، فليس هناك شيء يستحق الثقة إذن في دنيا الإنسان !

الفصل الرابع

الخطابة عند الجاهليين

الخطابة عند الجاهليين

يتناول الجاحظ في كتابه [١]: ضمن ما يتناول، الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي مبيِّنًا أنهم كانوا بارعين في هذا الميدان براعة منقطعة النظير حتى إنهم لم يكونوا عادةً بحاجة إلى الاستعداد المسبق لمواجهة الجموع التي يتطلبها هذا الفن، بل كان الكلام في مثل تلك المواقف ينثال عليهم إنثيالاً، إذ كانت قرائحهم خصبة ممتازة وتفوّقهم في ميدان الأحاديث العامة معروفاً لا يحتاج إلى برهان، وبخاصة أنهم كانوا يدربون أبناءهم عليها منذ وقت مبكر، وإن كان من الباحثين المحدثين من يرى أنهم كانوا يُعِدّون خُطَبهم ويهيئون أنفسهم لإلقائها مسبَّقاً، فهذه طبيعة الإبداع الأدبي كما يقولون، وهو ما تميل النفس إليه، وبخاصة أنّ مِنْ خُطَبهم التي تبعث على الثقة بصحتها ما كان يحلّيه السجع، مما يصعب تصور إنثياله على لسان الخطيب إرتجالاً، وهو من الأسباب التي دفعتني للشك في بعض الخُطَب الجاهلية المثقلة بالتسجيع والمحسنات البديعية كما سيأتي لاحقاً [٢].

---

(١) البيان والتبيين ص ١٦٦ - الجاحظ.

(٢) د. إحسان النص/ الخطابة العربية في عصرها الذهبي/ دار المعارف/ ١٩٦٣م/ ١٦ - ١٧

كما كانت لهم تقاليد مشهورة في إلقاء الخطب يحرصون عليها أشد الحرص، منها لُبْس العمائم واتخاذ المِخْصَرة، أي العصا.

وفي كتاب الجاحظ المذكور آنفًا نماذج من الخُطَب التي تركها لنا الجاهليون، ومعها أسماء عدد ممن أشتهروا بالتفوق في ذلك الباب، وهذا كله يبرهن أقوى برهان على أن العرب في ذلك العصر كانت لهم خطبهم وأحاديثهم، وأن هذه الخطب والأحاديث لم تَضِع رغم أنهم كانوا أُمّة أُمِّيّة في غالب أمرها، إذ كانت حافظتهم لاقطة شديدة الحساسية، كما أن اعتزازهم بكلامهم وتقاليدهم قد ضاعف من اهتمامهم بحفظ نصوص خطبهم المشهورة.

وبالمثل يؤكد جرجي زيدان أن العرب في ذلك العصر كانوا خطباءَ مَصَاقِعَ بتأثير طبيعتهم النفسية وأوضاع حياتهم السياسية والاجتماعية، إذ كانوا ذوي نفوس حساسة أبيّة تعشق الاستقلال وتبغض العبودية أشد البغض، كما كثر فيهم الفرسان آنذاك.

والخطابة، حسبما يقول، تناسب عصور الفروسية حيث تغلب الحماسة على النفوس وتكون للكلمة البليغة المتلهّبة مكانة عظيمة عالية، فضلاً عن أنهم كثيراً ما كانوا يتنافرون ويتفاخرون بالأحساب والأنساب مواجهةً عن طريق المناظرات والخطب، إلى جانب كثرة وفودهم في المناسبات المختلفة، وبخاصة عند الملوك، مما كان يستلزم قيام الخطباء للحديث في تلك الظروف، وهم في العادة شيوخ القبائل ورؤساء الناس.

كما ذكر أيضاً جرجي زيدان أنهم كانوا يدرِّبون فتيانهم على إتقان هذا الفن منذ حداثتهم، وأنهم كانوا يحفظون خطبهم ويتوارثونها جيلاً بعد جيل،

ومن هنا كانت عنايتهم الشديدة بها وبصياغتها [١].

يقول محمد عبد الغني حسن: (وكان مفروضاً في الخطيب الجاهلي أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر أو يهادن أو يحرض قومه على قتال أو يدافع عن أحساب قومه [٢].

هذا ما يقوله ثلاثة من كبار مؤرخي الأدب العربي قديماً وحديثاً، بيد أن للدكتور طه حسين رأياً مختلفاً تماماً عما سمعناه منهم، إذ يؤكد أن العرب لم يتركوا لنا أية آثار أدبية نثرية البتة لا خُطَباً ولا غير خُطَب:

فالنثر من جهةٍ يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة لم تكن متوفرة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شيء من ذلك مكتوب، فكيف نطمئن إذن إلى ما يقال إن العرب قد خلّفوه لنا من خطب وحِكَم ووصايا وأسجاع كهنوتية ؟

لكننا نراه، بعد أن أكد هذا في أسلوب حاسم قاطع، يرجع على عقبيه القهقري مستثنياً من شكه هذا بعضاً من النثر، وهو الأمثال، التي يعود فيقول إنها أقرب إلى الأدب الشعبي منها إلى النثر الفني الذي يقصده، أما الخطابة فإنها تستلزم حياة خصبة جياشة، وحياة العرب قبل الإسلام لم تكن فيها سياسة قوية ولا نشاط ديني عملي، بل كانت قائمة على التجارة، وهي لا تحتاج إلى خطابة ولا تعين عليها، أو على الحروب والغزوات، وهذه إنما تحتاج إلى

---

(١) جرجي زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف/ دار الهلال/ ١/ ١٦٧ - ١٦٩

(٢) محمد عبد الغني حسن/ الخطب والمواعظ/ دار المعارف/ ١٩٥٥م/ ٢١

الحوار والجدل لا إلى الخطب [١].

ولعله لهذا السبب نبحث عبثًا، في كتاب (التوجيه الأدبي) الذي ألفه طه حسين مع أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد، عن أي حديث يتعرض للخطابة في العصر الجاهلي، إذ كلما ورد ذكر الخطابة عند العرب وجدنا كاتب الفصل، وأغلب الظن أنه طه حسين نفسه، يقفز مباشرة إلى الحديث عنها بدءاً من العصر الإسلامي فهابطًا إلى العصر الحديث متجاهلاً تمام التجاهل أي كلام عنها فيما قبل الإسلام![٢].

رغم تأكيد الكاتب أيضاً أن: تاريخ الخطابة يكاد يكون مقارناً للتاريخ الإنساني: نشأ بنشأته، وارتقى برقيه، وأنه لهذا رُوِيَت لنا الخُطَب منذ عُرف التاريخ، وأنه متى توفر عاملاً الحرية وشعور الأمة بسوء حالتها وتطلعها إلى حالة أفضل أنتعش هذا الفن انتعاشاً كبيراً [٣].

وهو ما تحقق للعرب في ذلك العصر حسبما هو معلوم، إذ لم يكن لهم دولة تمارس سلطانها عليهم وينزلون لها عن حَظٍّ من حريتهم واستقلالهم، كما أن السخط على الأوضاع كان منتشراً بين كثير منهم آنذاك، هذا السخط الذي كان إحدى عُدَد الإسلام في مواجهة الجاهلية وأوضاعها الباطلة التي جاء ليغيرها إلى ما هو أفضل.

---

(١) طه حسين/ في الأدب الجاهلي/ دار المعارف/ ١٩٦٤م/ ٣٢٩- ٣٣٢

(٢) التوجيه الأدبي/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١٣٥٩هـ- ١٩٤٠م/ ٤١ وما بعدها، وكذلك ٧٣ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق/ ٣٨- ٤٠

ثم إنه من غير المنطقي أن يخترع العرب في عصور التدوين كل تلك الخطب وكل أولئك الخطباء من العدم ودون أن يقوم من بينهم من يفضح هذا التزييف، وكأن الأمة قد صارت كلها أمة من الكذابين أو من الكذابين والسذّج المغفلين الذين يجوز عليهم مثل هذا الخداع دون أن يثير فيهم إنكاراً أو حتى دهشة واستغرابا !

على كل حال فالكاتب طه حسين إنما يسير في إنكاره للنثر الجاهلي على ذات الدرب المتخبِّط الأهوج الذي سار عليه في نفيه للشعر الجاهلي كله تقريباً مشايعاً المحترق مرجليوث في خُرْقه وضلاله وعَمَى منطقه وبصيرته!

وفوق ذلك فمن الصعب على العرب، كما يلاحظ بحقٍّ عبد الله عبد الجبار والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، أن يرتقوا فجأة في ميدان الخطابة هذا الارتقاء الذي يقرّ هو به بعد الإسلام لو كانوا لا يعرفون الخطابة في الجاهلية أو كانت خطابتهم على الأقل من التفاهة وعدم الغَنَاء بالموضع الذي يزعم طه حسين [١].

كذلك قَفَشه د. محمد عبد العزيز الموافي قفشةً بارعةً بحقٍّ حين لفت الإنتباه إلى أن طه حسين: عندما أنكر وجود الخطابة الجاهلية إنما كان اعتماده في ذلك الإنكار على خُلُوّ العصر الجاهلي من الحضارة والحياة المدنية الراقية، مع أنه سبق أن أقام إنكاره لصحة الشعر الجاهلي على القول بأن ذلك الشعر لا يمثل الحياة العقلية الراقية لدى الجاهليين [٢].

---

(١) أنظر كتابهما: «قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي»/ مكتبة الكليات الأزهرية/ ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م/ ٢٠٢ - ٢٠٣

(٢) د. محمد عبد العزيز الموافي - قراءة في الأدب الجاهلي/ ص٧/ دار الثقافة العربية/ ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م/=

أي أنه يقول بالشيء ونقيضه لتقرير ما يريد تقريره دون مبالاة باعتبارات المنطق أو حقائق التاريخ، مع الإستعانة بالسفسطة السخيفة التي لا تُحِقّ حَقًّا ولا تُبْطِل باطلاً !

ولقد فات د. طه أن هناك نصوصاً شعرية جاهلية تذكر الخطابة والخطباء في ذلك العصر، وهو دليل آخر على وجود الخطابة والخطباء ومن هذه الأشعار قول ربيعة بن مقروم الضبيّ:

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وقول أبي زبيد الطائي:

وخطيبٍ إذا تمَعْـــــــرَتِ الأَوْ جُهُ يوماً في مَأْقِـــــــطٍ مش

وقول أوس بن حجر:

أَمْ من يكون خطيب القوم إذ حَفَلوا
لدى الملوك ذوى أَيْدٍ وأفضالِ

وقول عامر بن فَضَالة:

وهم يَدْعَمون القول في كـل محفلٍ
بكل خـطيبٍ يترك القوم كُظَّما

ومعروف أن كل وفد من الوفود القبلية التي قَدِمَتْ على النبي ﷺ في المدينة عام تسعة للهجرة كان يضم بين أفراده خطباء يتكلمون باسم الوفد ويتبادلون الخطابة مع الرسول الأعظم ﷺ ومَنْ حوله من الصحابة، وهذا أيضاً

= ٢٨٦ - ٢٨٧

من الأدلة التي لا يمكن نقضها مهما سفسط طه حسين.

وقد تعرض لذلك د. جواد علي إذ قال: والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول الأكرم وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء.

ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين، وإن كان من رأيه أن هناك خطباً جاهلية منحولة وأن نصوص الخطب الصحيحة لم تصل إلينا كما قيلت، بل دخلها التغيير بفعل الزمن وضعف الذاكرة البشرية، وبخاصة أن الخُطَب ليست كالشعر، أي ليس فيها وزن وقافية يساعدان على حفظها [١].

وعلى عكس ما يَهْرِف به طه حسين هنا على النحو الذي كان معروفاً عنه عند عودته من أوروبا متصوراً أنه قد حاز العلم كله وأن القول ما قال المستشرقون، الذين كان يردد كلام من يشككون منهم في تاريخ العرب وأمجادهم بعُجَره وبُجَره دون أن يتريث لحظة واحدة للتثبت مما يقوله هذا الصنف الموتور منهم، على عكس ذلك يؤكد أحمد حسن الزيات: أن العرب، بنفوسهم الحساسة ونزوعهم إلى الحرية والاستقلال وميلهم إلى الفخار وما كانوا يتَّسِمون به من غيرةٍ ومسارعةٍ للنجدة وبلاغةٍ في القول وذَلاقةٍ في اللسان وما عرفوه من الوفود والسفارات، كانوا مهيئين للتفوق في ميدان الخطابة، مبيناً

(١) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام- الفصل الخاص بالنثر تحت عنوان الخطابة- د. جواد علي.

أن خطبهم كانت تتسم بالقِصَر والسجع حتى تَعْلَق بالذهن عُلُوقاً سهلاً[١].

وبالمثل يقرر د. علي الجندي بحقٍّ أنه قد: ثبت أن (العرب) كانوا يخطبون في مناسبات شتى: فبالخطابة كانوا يحرِّضون على القتال استثارةً للهمم وشَحْذًا للعزائم، وبها كانوا يحثّون على شن الغارات حُبًّا للغنيمة أو بَثًّا للحميّة رغبةً في الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم حقنًا للدماء ومحافظةً على أواصر القربي أو المودة والصلة، ويحبّبون في الخير والتصافي والتآخي، ويبغّضون في الشر والتباغض والتنابذ، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهامّ السفارات جَلْباً لمنفعة أو دَرْءاً لبلاء أو تهنئةً بنعمة أو تعزيةً أو مواساةً في مصيبة، فوق ما كانت الخطابة تؤديه في المصاهرات، فتُلْقَى الخطب ربطًا لأواصر الصلة بين العشائر وتحبيب المتصاهرين بعضهم في بعض [٢].

وعلى هذا الرأي أيضاً نجد د. أحمد الحوفي، الذي يسارع مع هذا إلى الاستدراك بأن العرب، بخلاف ما كان الحال عليه لدى الرومان واليونان، لم يكونوا يُعِدّون خطبهم قبل إلقائها، بل كانوا يعتمدون على الارتجال والبديهة، ومن هنا جاءت خُطَبهم لُمَعاً بارقةً دون تفصيل أو تخطيط [٣].

أما السباعي بيومي فيرى أن خطباء العرب كانوا يحفلون بخطبهم أيما حُفُول، فيتخيرون لها من المعاني أشرفها، ومن الألفاظ أفصحها، لتكون أشدّ وقعاً على النفوس وأبعد تأثيراً في القلوب وأيقظ للهمم وأحثّ على

---

(١) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص ١٩، ط ٢٤، دار نهضة مصر.

(٢) د. علي الجندي، تاريخ الأدب الجاهلي ص ٢٦٤ - ٢٦٥، دار المعارف.

(٣) أحمد محمد الحوف، فن الخطابة ص ١٥٠ - ١٥١ ، مكتبة نهضة مصر.

العمل[١].

ومن قَبْلُ سَرَدَ ابن وهب الموضوعات التي كانت تدور عليها الخطب آنذاك قائلاً: إن الخطب تستعمل في إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب - أي نارها وشرها- وحِمَالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفي عقد الإملاك - أي الزواج - وفي الدعاء إلى الله عز وجل وفي الإشادة بالمناقب والأعمال الجليلة ولكل ما أُرِيدَ ذكره ونشره وشهرته بين الناس [٢].

أما د. شوقي ضيف فيسلك سبيلاً مخالفة للفريقين جميعاً، إذ بينما نراه يؤكد وجود الخطابة والخطباء في الجاهلية وتوفُّر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التي تكفل لها الازدهار، إذ به يشك في كل ما وصلنا تقريباً عن ذلك العصر من خُطَب. والسبب في هذا الشك لديه هو بعد الشقة الزمنية بين العصر الجاهلي وعصر التدوين أيام العباسيين.

ومع ذلك نجده يقول إن من زيفوا نصوص الخطب الجاهلية كانوا بلا شك يعتمدون على نصوص جاهلية صحيحة وضعوها أمامهم واحتذَوْها، وعلى هذا فإذا وجدنا أن كثيراً من الخطب والمفاخرات والمنافرات التي تُنْسَب إليهم مجوَّدة مسجوعة مثلاً كان معنى هذا أنهم في الجاهلية كانوا يجوّدون ويَسْجَعون في خُطَبهم ومفاخراتهم ومنافراتهم فعلا [٣].

---

(١) تاريخ الأدب العربي - ج ١ في العصر الجاهلي ص٩٧، مكتبة الأنجلو المصرية.

(٢) ابن وهب، البرهان في وجوه البيان ص ١٥٠ تحقيق حفني شرف، مطبعة الرسالة، ١٩٦٩م.

(٣) د. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٤١٠ - ٤١٩، والفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٧، دار المعارف ص ٣٣- ٣٨.

إلا أننا، مع احترامنا للدكتور وتقديرنا للفصلين اللذين كَسَرهما لهذا الموضوع في كتابيه المشار إليهما وما فيهما من علم وتحليل، لا نستطيع أن نسلِّم بما يقول على علاّته، إذ لا معنى لكلامه هذا إلا أنه قد وصلت مخترعي الخطب الجاهلية فعلاً نصوص صحيحة منها قاسُوا عليها ما صنعوه ونسبوه إلى الجاهليين، فلماذا رَمَوْها خلف ظهورهم واكتفَوْا بما اخترعوه رغم تَيْح الأصل لهم ؟

وإذا كانوا لأمر ما غَيْرِ مفهوم قد أقدموا على هذا الصنيع الأخرق فكيف لم يُتَحْ لهذه النصوص الصحيحة من يعرف لها قدرها ويحفظها من الضياع ؟

وقبل ذلك مَنْ قال إن بُعْد الزمن ما بين الجاهلية وعهد التدوين كفيل بإنساء العربي تراث آبائه وأجداده ؟

لقد عُرِف العربي بذاكرته القوية وحرصه على تاريخه وأدبه واعتزازه بالكلمة الفنية التي ينتجها نثراً كانت أو شعراً، وقيام حياته الثقافية على الحفظ والرواية والتمثل المستمر بنتاج قرائح الشعراء والمتكلمين بحيث كان من الصعب أشد الصعوبة انتساخ تراثه القولي.

فإذا أضفنا أن كثيراً من خطبهم في الجاهلية كان مسجَّعاً مجنَّساً مُرَاعًى فيه الموازنة وقِصَر الجمل، فضلاً عن قِصَر الخُطَب نفسها تبين لنا أن حفظ مثل هذا النتاج الأدبي لم يكن بالمهمة الشديدة الصعوبة، بَلْهَ المستحيلة، كما يتخيل البعض منا قياساً على ما يَخْبُرونه من الذاكرة العربية الحالية، وهي ذاكرة لا تتمتع بما كانت تتمتع به سليفتها الجاهلية من حِدّة ودِقّة، مثلما لا يتمتع أصحابها بما كان يتمتع به نظراؤهم أوانذاك من أهتمام فائق بالكلمة المشعورة والمنثورة رغم تصورنا العكس اعتماداً على ظواهر الحال

المضلِّلة.

ولا ننس أيضاً أن العقل الجاهلي لم يكن ينوء بما ننوء به الآن مشاغل ومتاعب يصرفنا صرفاً عن الحفظ والاهتمام برواية الأشعار والخطب على النحو الذي كان عليه الوضع في العصر الجاهلي.

وفوق هذا فإن الأُمِّيّة التي كانت تَسِم مجتمَعهم بوجه عام قد دفعتهم دفعاً إلى الاستعمال المكثف والمستمر للذاكرة بما يجعلها ناشطة نشاطاً لا نعرفه الآن.

وعلى كل حال فقد قال الأستاذ الدكتور أيضاً، كما رأينا: إن الذين اخترعوا الخُطَب ونسبوها للجاهليين قد قاسُوها على ما وصلهم من خطب جاهلية حقيقية، أي أن بُعْد الزمن لم يكن له ذلك التأثير الذي عزاه إليه وعلَّل به شكه في صحة خطب الجاهلية التي بلغتنا. الواقع أن آخِر كلامه يَنْقُض أوّله بكل أسف!

بَيْدَ أن قولنا بقدرة الذاكرة العربية على تأدية المحفوظ من نصوص الخطابة الجاهلية شيء، والزعم بأنها قد أدته على وجهه لم تَخْرِم منه شيئاً، فلم تضف إليه ما ليس منه ولم تنقص منه ما كان فيه ولم تبدل بعض ألفاظه وعباراته أو معانيه ومضامينه، هو شيء آخر مختلف، فالذاكرة البشرية، ككل شيء في عالم البشر، عرضة للسهو والكلال والالتباس.

ودعنا من النصوص التي زُيِّفَتْ تزييفاً واخْتُرِعَتْ اختراعاً مما سنتناوله بشيء من التفصيل فيما يلي حينما نقف عند طائفة من النصوص الخطابية التي ليست قَمِينَةً في نظرنا بالقبول والاطمئنان.

ومن هذه الخُطَب المنسوبة للجاهلية التي يصعب علينا القول بجاهليتها تلك الخطب التي يُفْتَرَض أن أصحابها يتنبأون فيها بمجيء رسول الله محمدﷺ، إذ السؤال هو:

من أين لأصحابها هذا العلم بالغيب ؟ إن الغيب هو من شأن الله تعالى وحده لا يعلمه أحد سواه.

يقول بهذا القرآنُ والحديثُ وينطق به العقلُ والمنطقُ. ولو أن الذين قالوا هذا كانوا يهودا أو نصارى لقلنا: ربما قرأوه في كتبهم. لكنهم لم يكونوا يهُوداً ولا نصارى، فأنَّى لهم ذلك ؟

وحتى لو كانوا من أهل الكتاب فإن الذي في القرآن أن روح الله عيسى (ع) قد بشَّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد [1]، على حين أن اسم النبي في هذه الخُطَب هو: محمد !

ليس ذلك فحسب، بل هناك أسئلة أخرى لا نستطيع الإجابة عليها لو قبلنا صحة هذه الخُطَب، وهي: لو أن ما جاء في تلك الأحاديث صحيح تاريخياً، فكيف لم يحاجج النبي به قومه فيقول لهم مثلاً:

لقد سبق أن سمعتم بأن هناك نبياً من قريش سوف يظهر، اسمه محمد، فكيف تكفرون بي بعد أن قال كهّانكم أنفسهم ذلك قبل ولادتي ؟

لكننا ننظر في كلام رسول الله ﷺ وفي القرآن الكريم فلا نجد أثراً لمثل هذه الحجة التي كان من شأنها أن تعضد موقف النبي أيما تعضيد !

كذلك فبعض هذه الخُطَب قد نُسِبَ لكعب بن لُؤَي جد النبي البعيد، ولو

---

(١) سورة الصف آية ٦

كان هذا صحيحاً فكيف لم يذكِّر النبي أجداده وأعمامه الذين كفروا به كعمه أبي لهب مثلاً، ونحن نعرف أن الجاهليين كانوا يتمسكون أشد التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد كما تبدَّي في ردّ الأخير فيما يروون عنه عند موته، إذ أعتذر عن الدخول في دعوة النبي ﷺ على أساس أنه لا يحب المخالفة عن دين آبائه ؟

وعلى هذا فإننا نقف مرتابين أشد الريبة إزاء الخطبة التالية التي ينسبونها لجد النبي ﷺ ذاك، والتي يقول فيها: اسمعوا وعُوا، وتعلَّموا تَعْلَموا، وتفهَّموا تَفْهَموا. ليلٌ ساج، ونهارٌ صاج، والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين، كل ذلك إلى بلاء. فَصِلُوا أرحامكم وأصلحوا أحوالكم، فهل رأيتم من هلك رجع، أو ميِّتًا نُشِر ؟

الدار أمامكم، والظن خلاف ما تقولون. زَيِّنُوا حَرَمكم وعظِّموه، وتمسكوا به ولا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم.

نهارٌ وليـلٌ واختلاف حوادثٍ
سواءٌ علينا حُلْوها ومـــرِيرُهـا
يؤوبان بالأحداث حـتى تأوَّبا
وبالنِّعَم الضافي علـــينا سُتُورُها
صُروفٌ وأنباء تقلّب أهـــلها
لها عُقَدٌ ما يستـــــحيل مَرِيرُها
على غفلة يأتي النبي محمدٌ
فيُخْبِر أخباراً صَـــــدُوقًا خبيرُها

يا ليتني شاهد فَحْواءَ دعوته
حين العشيرةُ تبغي الحقَّ خذلانا

وهذه الخطبة، فوق ذلك، تحتوي على أشياء أخرى تدفعنا إلى مزيد من التشكك فيها، منها أن العبارة التي يتمنى فيها كعب أن يكون حَيًّاً عند ظهور (محمد) تذكِّرنا بما قاله في نفس المعنى ورقة بن نوفل، الذي كان هناك سبب وجيه لكلامه هذا، ألا وهو أنه كان يخاطب النبي ﷺ فمن الطبيعي أن يتمنى مثل هذه الأمنية، إذ ها هو ذا النبي الموعود واقف أمامه يجاذبه أطراف الحديث حول ما رآه في الغار عند ظهور جبريل له، فيجد من واجبه الإنساني على الأقل أن يبصِّره بما ينتظره من متاعب عند بدء الدعوة الفعلية ويُظْهِر له تعضيده ويرفع من روحه المعنوية.

أما كعب فكانت بينه وبين النبي ﷺ الذي يتحدث عنه من الزمن ما لا معنى معه لما قال.

ꕥ ꕥ ꕥ

القرآن وفن الخطابة:

وفضلاً عن ذلك القرآن الكريم واضح وضوحاً كبيراً في خطبته أسلوباً ومعنًى كما في قوله: والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين... فسيأتي له نبأٌ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم .

وهو ما يذكِّرنا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ۝ وَالجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[1].

(١) سورة النبأ آية ٧

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[١].

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾[٣].

ولو كان كعب قال ذلك فعلاً لكان حُجَّةً للمشركين يشهرونها بكل بساطة وشماتة في وجه رسول الله ﷺ قائلين له:

ما بالك تأخذ كلام جدّك وتدَّعي أنه من وحي السماء ؟

ثم ما معنى نصحه إياهم أن يتمسكوا بالبيت الحرام ولا يفارقوه ؟

هل سمع أحد أن قريشاً فكرت يوماً في شيء من هذا القبيل، وهي التي لم يكن لها شرف في العرب إلا شرف القيام على أمر البيت الحرام؟

وبالمناسبة لماذا لم يعرِّج كعبٌ على الأوثان التي كانت في بيت الله فيزجر قومه عن عبادتها وتقديسها ما دام يتحدث بهذا السرور والإيمان عن نبوة محمد ﷺ ؟

والطريف أن أحداً من سامعيه لم يخطر له أن يستفسر منه عمن يكون محمد هذا، أو يستغرب ظهور نبي من العرب أصلاً.

---

(١) سورة الواقعة الأيات ٤٩- ٥٠

(٢) سورة ص آية ٦٧

(٣) سورة الدخان آية ١٧.

بل إنه لمن الواضح أن كعباً، حسب الخطبة التي طالعناها، لم يكن يدور في باله أن محمداً هذا لن يكون أحداً آخر غير حفيد من أحفاده سيولد بعد عدة أجيال!

ﷺ ﷺ ﷺ

الخطابة الشائعة في الجاهلية:

وعلى نفس الشاكلة تجري الأحاديث التالية المنسوبة إلى خُنَافر بن التوأم الحِمْيَري وشافع بن كُلَيْب الصدفي وسَطِيح الذئبي وشِقّ أنمار وعُفَيْراء الكاهنة على التوالي:

١- حديث خنافر بن التوأم الحِمْيَرِيّ مع رَئِيّه شَصَار: كان خُنَافر بن التوأم الحميري كاهناً، وكان قد أُوتِيَ بسطة في الجسم وسَعة في المال، وكان عاتياً. فلما وفدتْ وفود اليمن على النبي وظَهَر الإسلام أغار على إبلٍ لِمُرَاد فإكتسحها، وخرج بأهله وماله ولحق بالشِّحْر، فخالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمي، وكان سيداً منيعاً، ونزل بواد من أودية الشِّحْر مُخْصِباً كثير الشجر من الأيك والعَرِين.

قال خنافر: وكان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك.

فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائماً إذ هَوَى (أنحدر في الجَوّ) هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر ؟ فقلت: شصار ؟ فقال: أسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدةٍ نهاية، وكلُّ ذي أمدٍ إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولةٍ إلى أجل، ثم يتاح لها حِوَل.

انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجيرٌ (أي صديق) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَراً من آل العُذَّام (يقصد قبيلة من الجن)، حكّاماً على الحكّام، يَذْبُرون (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أي مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟

قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، وأسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار.

فقلت: وما هذا الكلام؟

فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، أبتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأَوْضَحَ نَهْجًا قد دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآي الكُبَر.

قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر ؟

قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أي الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق.

قلت: من أين أبغي هذا الدين ؟

قال: من ذات الإِحَرِّين، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين.

قلت: أَوْضِحْ. قال: الْحَقْ بيثربَ ذات النخل، والحَرّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضل، والمواساة والبذل. ثم أمَّلَسَ عني، فبتُّ مذعوراً أراعي الصباح. فلما برق لي النور امتطيتُ راحلتي وآذنتُ أَعْبُدِي واحتملتُ بأهلي

حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْلها وسِقَابها «**أي بجِمَالها ونُوقها. جَمْع: حائل وسَقْب**» وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله فبايعته على الإسلام وعلَّمني سوراً من القرآن فمنّ الله علي بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة.

٢- شافع بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ يتكهن بظهور النبي: قَدِمَ على تُبَّع الآخِر ملكِ اليمن قبل خروجه لقتال المدينة شافعُ بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ، وكانَ كاهنا، فقال له تُبَّع: هل تجد لقوم مُلْكاً يوازي مُلْكي ؟

قال: لا إلا مُلْك غسان. قال: فهل تجد مُلْكاً يزيد عليه ؟

قال: أجده لبارٍّ مبرور، ورائدٍ بالقُهُور، ووُصِفَ في الزَّبُور، فُضِّلَتْ أمته في السفور، يفرِّج الظُّلَم بالنور، أحمد النبي، طوبى لأمته حين يجي، أحد بني لُؤَيّ، ثم أحد بني قُصَيّ. فنظر تُبَّع في الزبور، فإذا هو يجد صفة النبي.

٣- سَطِيحٌ الذئبي يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر اللَّخْمِيّ: رأى ربيعةُ بن نصر اللَّخْمِيّ ملكُ اليمن، وقد مَلَكَ بعد تُبَّع الآخَر، رؤيا هالتْه فلم يَدَعْ كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجِّماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها، فأخبروني بها وبتأويلها.

قالوا له: أقصصها علينا نخبرك بتأويلها.

قال: إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها.

فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيح وشِقّ فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما فيها، يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقَدِم

عليه سَطِيحٌ قبل شِقّ، فقال له: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها فأخبرْني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها.

قال: أفعل. رأيتَ حُمَمَة، خرجتْ من ظُلْمة، فوقعت بأرض تَهَمَة، فأكلتْ منها كل ذات جمجمة.

فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئاً يا سطيح، فما عندك في تأويلها ؟

فقال: أحلف بما بين الحَرَّتين من حَنَش، لَيهبطنَّ أرضَكم الحَبَش، فلَيملكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَش.

فقال له الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظٌ مُوجِع، فمتى هو كائن؟

أفي زماني هذا أم بعده ؟

قال: لا بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين.

قال: أفَيَدُوم ذلك من مُلْكهم أم ينقطع ؟ قال: لا بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ثم يُقْتَلون بها أجمعين، ويخرجون منها هاربين.

قال: ومن يلي ذلك مِنْ قَتْلهم وإخراجهم ؟ قال: يليه إرم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحداً منهم باليمن.

قال: أفَيَدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال: بل ينقطع.

قال: ومن يقطعه ؟ قال: نبيٌّ زكيّ، يأتيه الوحي من قِبَل العَلِيّ.

قال: وممن هذا النبي ؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر، يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر من آخر ؟ قال: نعم. يومٌ يُجْمَع فيه الأولون والآخِرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون.

قال: أحقٌّ ما تخبرنا يا سطيح ؟ قال: نعم، والشَّفَق والغَسَق والفَلَق إذا أنشقّ، إن ما أنبأتك به لَحَقّ.

٤- شِقّ أنمار يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر أيضاً: ثم قدم عليه شِقٌّ فقال له كقوله لسطيح وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان.

قال: نعم رأيت حُمَمَة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلتْ منها كل ذات نَسَمة. فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأتَ يا شِقُّ منها شيئا، فما عندك في تأويلها ؟

قال: أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان، لَينزلَنّ أرضَكم السودان، فلَيغلبُنّ على كل طَفْلَة البَنَان، ولَيملكُنَ ما بين أَبْيَن إلى نجران.

فقال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن ؟

أفي زماني أم بعده ؟ قال: لا، بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن، ويذيقهم أشد الهوان.

قال: ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال غلام ليس بِدَنِيٍّ ولا مُدَنّ، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن.

قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال: بل ينقطع برسولٍ مرسَل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْك في قومه إلى يوم الفَصْل.

قال: وما يوم الفصل ؟ قال: يومٌ تُجْزَى فيه الولاة، يُدْعَى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَع فيه بين الناس للميقات، يكون

فيه لمن اتقى الفوز والخيرات.

قال: أحَقٌّ ما تقول ؟

قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتُك به لَحَقّ، ما فيه أَمْض.

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا، فجهّز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصْلِحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمِنْ بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر.

٥- وفود عبد المسيح بن بُقَيْلَة على سَطِيح: عن ابن عباس ﷺ قال: لما كان ليلةُ وُلِد النبي أرتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان أَوْشَكَ أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره (أي عرشه) وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان:

أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني.

قال له: وما رأيتَ ؟

قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلاً عِرَابا، قد اقتحمت دجلة وأنتشرت في

بلادنا.

قال: رأيتَ عظيماً، فما عندك في تأويلها ؟

قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلاً من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان.

فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سطيح.

قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد أحْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليـمنْ
يا فاضلَ الخطة أَعْيَتْ مَنْ ومَنْ
أتاك شيخ الحي من آل سـنَنْ
أبيض فضفاض الرداء والبـدنْ
رسول قَيْل العجْم يَهْـوى للوثن
لا يرهـب الرَّعْد ولا رَيْب الزمـنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أي سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خيلاً عِرَاباً، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست

بابل للفرس مُقَاماً، ولا الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آتٍ. ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم
فإن ذا الدهرَ أطوارًا دهاريرُ
منهم بنو الصرح بهرامٌ وإخوته
والهرمزان وسابورٌ وسابورُ
فربما أصبحوا يوما بمنزلة
تهاب صَوْلَهم الأُسْدُ المهاصيرُ
حَثّوا المَطِيّ وجَدّوا في رِحالهمو
فما يقوم لهم سرجٌ ولا كُورُ
والناس أولاد عَلاّتٍ، فمَنْ عَلِمُوا
أَنْ قد أَقَلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
والخير والشر مقرونان في قَرَنٍ
فالخير متَّبَعٌ، والشر محذورُ

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح، فغمَّه ذلك ثم تَعَزَّى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة، وكان آخر من هلك منهم في أول خلافة عثمان ﷺ.

٦- عُفَيْراء الكاهنة تَعْبُر رؤيا مَرْثَد بن عبد كُلاَل: رُوِيَ أن مَرْثَد بن عبد كُلاَل قَفَلَ من غزاةٍ غزاها بغنائم عظيمة، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها

وخطباؤها يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء وأشتد سروره بهم. فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته وهالتْه في حال منامه، فلما انتبه أُنْسِيَها حتى لم يذكر منها شيئاً وثَبَتَ ارتياعُه في نفسه بها، فانقلب سروره حزنا واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن.

ثم إنه حَشَرَ الكهان فجعل يخلو بكاهن كاهن، ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، فيجيبه الكاهن بأنْ لا عِلْم عندي، حتى لم يَدَعْ كاهنًا عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك، فتضاعف قلقه، وطال أرقه. وكانت أمه قد تكهنت، فقالت له: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك ! إن الكواهن أَهْدَى إلى ما تسأل عنه لأن أتباع الكواهن من الجانّ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان.

فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان، فلم يجد عند واحدة منهن علما مما أراد علمه _ ولما يئس من طَلِبَته سلا عنها_ ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل في طلب الصيد وانفرد عن أصحابه فرُفِعَتْ له أبيات من ذَرَا جبل (أي في ظل جبل). وكان قد لفحه الهجير فعدل إلى الأبيات وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها، فبرزت إليه منه عجوز فقالت له: أنزل بالرُّحْب والسَّعَة، والأمن والدعة، والجفنة المُدَعْدَعَة (الممتلئة عن آخرها)، والعُلْبة المُتْرَعة. فنزل عن جواده ودخل البيت. فلما احتجب عن الشمس وخَفَقَتْ عليه الأرواح (أي النسائم) نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهجير، فجلس يمسح عينيه، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاماً ولا جمالا، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك الهمام، هل لك في الطعام؟

فأشتد إشفاقه وخاف على نفسه لمّا رأى أنها عرفته، وتصامَّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَر، فداك البشر، فجَدُّك (حظّك) الأكبر، وحظنا بك الأوفر. ثم

قَرَّبَتْ إليه ثَريداً وقَديداً وحَيْساً، وقامت تذُبّ عنه حتى انتهى أكله، ثم سقته لبنا صَريفاً وضَريباً، فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلةً ومدبرةً، فملأت عينيه حُسْنًا، وقَلْبَه هَوًى، فقال لها: ما اسمك يا جارية ؟

قالت: اسمي عُفَيْرَاء.

فقال لها: يا عفيراء، من الذي دَعَوْتِه بالمَلِك الهمام ؟

قالت: مَرْثَد العظيم الشأن، حاشر الكواهن والكهّان، لمعضلةٍ بَعُدَ عنها الجان.

فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة ؟

قالت: أجل أيها الملك. إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام.

قال الملك: أَصَبْتِ يا عفيراء، فما تلك الرؤيا ؟

قالت: رأيتَ أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعتَ فيما أنت سامع، دعاء ذي جَرْسٍ صادع: هلموا إلى المشارع، فرَوِيَ جارِع، وغَرِقَ كارِع.

فقال الملك: أجل هذه رؤياي، فما تأويلها يا عفيراء ؟

قالت: الأعاصير الزوابع ملوكٌ تَبَابِع، والنهر عِلْمٌ واسع، والداعي نبيٌّ شافع، والجارع وليٌّ تابع، والكارع عدوٌّ منازع.

فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبي أم حَرْب ؟

فقالت: أُقْسِم برافع السماء، ومُنْزِل الماء، من العَمَاء، إنه لَمُطِلّ الدماء، ومُنَطِّق العقائل نُطُق الإماء.

فقال الملك: إلامَ يدعو يا عفيراء ؟

قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام. فقال الملك: يا عفيراء، إذا ذبح قومه فمَنْ أعضاده ؟

قالت: أعضاده غطاريف يمانون، طائرهم به ميمون، يُغْزِيهم فيغزون، ويدمِّث بهم الحُزُون، وإلى نصره يعتزُون.

فأطرق الملك يؤامر نفسه في خِطْبتها.

فقالت: أبيت اللعن أيها الملك ! إن تابعي غيور، ولأمرى صبور، وناكحي مثبور، والكَلَف بي ثُبُور. فنهض الملك وجال في صهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقةٍ كَوْماء...

ꕥ ꕥ ꕥ

الرد على خنافر:

ونبدأ بحديث خنافر، وفي هذا الحديث نلاحظ ما يلي: أن رَئِيّ خنافر قد تركه في عمايته فلم يعلمه بأن نبياً جديداً ظهر بدعوته في بلاد العرب، إلى أن أصبح الناس في تلك البلاد كلهم يعلمون ذلك، اللهم إلا خنافر.

فعندئذ، وعندئذ فقط، تذكر شَصَارُ صاحبَه الكاهن المسكين النائم على أذنه لا يدري خبر الإسلام رغم أن نوره كان قد دخل اليمن وأضحى لدولته فيه رسولٌ من لدن النبي الكريم هو معاذ بن جبل.

ترى ما دور شصار إذن إذا لم يكن ما أنبأ به خنافراً إلا خبراً يعرفه القاصي والداني ؟

إن معنى هذا أن شيطان خنافر قد هجره هجراً غير جميل طَوَال ما يقرب من عشرين سنة، أي منذ بدء النبوة إلى وقت دخول الإسلام اليمن في أواخر حياة رسول الله ﷺ، فكيف كان خنافر يمارس كهانته إذن دون رَئِيٍ من الجن؟

أم تراه توقف عن ممارستها كل تلك الفترة ؟

لكن هل يمكن أن يكون ذلك ؟

وهل يمكن أن يستعيض كاهن عن كهانته بالسرقة والإغارة على إبل الآخرين، وبخاصةٍ أن خنافراً لم يكن، كما هو بَيِّنٌ من القصة، ذا عزوة تمنعه من طلب القبائل المعتدَى عليها وعملها على الثأر منه ؟

كذلك ليس هناك سبب مفهوم لهجر شَصَار لصاحبه كل تلك المدة، وهذه ثُغْرَة في القصة تحتاج إلى ما يملؤها.

كما أن تهديده له بأنه إذا لم يعتنق الإسلام مثله فلن يراه مرة أخرى هو تهديد لا معنى له، لأن معنى هذا التهديد أن شَصَار لن يساعد خُنَافِراً في كهانته، مع أننا نعرف جيداً أن الإسلام يكفِّر الكهان ويحاربهم دون هوادة، وهو ما يعني بكل وضوح أن اللقاء بينهما من الآن فصاعداً سيكون لقاء مجرَّماً ومحرَّماً أشد التجريم والتحريم، وهذا إن قَبِلَ الجني أن يقوم بدوره القديم المناقض لعقيدته الجديدة التي يدعو إليها خنافراً !

فكما ترى هذه ثُغْرَة أخرى في القصة يصعب بل يستحيل سَدّها.

ثم أليست القصة تريد أن تقول إن شصار قد أتاه بخبر الغيب، فأي غيب هذا الذي كان يعرفه الجميع في أرجاء الجزيرة الأربعة ؟

بل لماذا لم يعرف شصار بدوره بنبأ الإسلام إلا من إخوان له من الجن

كانوا قد آمنوا قبله ؟

ولماذا يا ترى كانوا يزجرونه عن سماع القرآن الذي كانوا يتلونه ؟

ألم يأت القرآن لهداية الجن والإنس ؟

فهل مما يتناسب مع هذه الغاية أن يُزْجَر عنه من يريد سماعه ؟

فكيف يعرف إذن ما جاء فيه من هدى ونور ؟

إن سورة الجن والآيات ٢٩ - ٣٢ من سورة الأحقاف تحدثان عن سماع نفر من الجن للقرآن من الرسول الأعظم دون أن يزجرهم زاجر، فلماذا جرى الأمر في قصتنا هذه على خلاف ذلك ؟

ولماذا كان هؤلاء النفر من الجن من أهل الشام لا من أهل اليمن ؟

أترى القصة تريد أن تقول: إن الشيخ البعيد سره باتع ؟

أم تريد أن تجري على سُنّة المثل القائل: من أين أذنك يا جحا ؟

كذلك ألم ينصح شَصَارُ لخنافر بأن يأتي النبي في المدينة ؟

فلماذا اكتفى خُنَافِرُنا بلقاء مُعَاذ بن جبل بعد كل هذا الكلام المشوِّق لرؤية النبي الكريم ؟ يا له من كاهن كسول! بل لماذا أراد صنعاءَ من الأصل، ولم يأت لها ذكر في الحوار بينه وبين رَئِيّه؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القصة، فهل كان خبر خنافر لِيغيب عن كُتُب الحديث ؟

كذلك لو كان ما قرأناه هنا صحيحاً لقد كان خبر ذلك الكاهن اليمني سلاحاً بتاراً في الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يستغله المسلمون ؟

صحيح أنه إنما أسلم، كما رأينا، بأُخَرة، لكن لا شك أن خبره كان يمكن أن يكون ذا نفع جزيل في معركة الدعاية بحيث يسهّل إنجاز المهمة الباقية، وهي القضاء على فلول الوثنية في بلاد العرب، تلك الوثنية التي لم تكن قد خمدت تماماً حتى بعد وفاة الرسول الأعظم وأنفجرت متخذةً شكل رِدَّةٍ مستطيرة.

ثم مصطلح السجع المتكلَّف، هذا المصطلح البلاغي الذي لم يعرفه العرب قبل عصر الازدهار الثقافي في العصر العباسي، من أين يا ترى للعرب الجاهليين بمعرفته ؟

بل إن في الخطبة سجعاً متكلَّفاً لا قِبَل للجاهليين به كما هو واضح في المثال التالي: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، وأسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار.

علاوة على هذه البهلوانية البلاغية الفنية الجميلة المتمثلة في هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجني: قال: أَسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ والتي يصعب عليّ أن أتصورها من شِيَم الأدب الجاهلي.

ليس ذلك فحسب، فهذا الكلام المنسوب للجن، هل يمكن أن نصدقه؟

إن الجن عالم خفي لا نعرف نحن البشر عنه شيئاً سوى ما جاء في الوحي كما هو الحال فيما أنبأنا به رب العزة من كلامهم عندما استمعت طائفة منهم إلى القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عدا هذا فأنا لا أستطيع أن أهضم شيئاً منه كما هو الحال هنا، وبخاصة أنه كلام عربي، فهل الجن يتحدثون العربية، ويصطنعون السَّجْع والجِنَاس وسائر المحسِّنات البديعية أيضاً ؟

وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأنهم في سُورَتَي الأحقاف والجن.. قد

استخدموا كذلك لسان بني يعرب، إذ الواقع أن ما نقرؤه هناك من كلامهم إنما هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التي لا ندري نحن البشر عنها شيئاً.

فكيف يسوغ في العقل هذا ؟ ولقد تصادف، بعد كتابة هذه الملاحظات بأيام، أن كنت أقرأ ما كتبه الدكتور جواد علي عن سجع الكهان فوجدته يقول عن هذه القصة إنها: خبر يرجع سنده إلى ابن الكلبي، وقد ذكر في الأخبار المنثورة لابن دُرَيْد: وقد ذكر أنه (أي خُنَافِراً) أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن. لا أدري كيف حفظه ابن الكلبي ورواه عن والده، الذي صنعه ووضعه، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها، وهو ما يُعَدّ من المستحيلات[1].

أي أن في العلماء العرب من كانوا لا يطمئنون مثلي إلى هذه القصة، وإن كان من السهل الجواب على هذا السؤال في حد ذاته بالقول بأن والد ابن الكلبي، وإن لم يحضر واقعة إسلام خنافر والحوار الذي دار بينه وبين شَصَار قبلها، قد سمعها مع هذا ممن سمعها بدوره من فم ذلك الكاهن. وعلى هذا فالأفضل هنا اللصوقُ بالأدلة التي اعتمدت أنا عليها بدلاً من الالتجاء إلى التشكيك في ذمة الرواة.

أما فيما يخص حديث شافع الصَّدَفِي فغريبٌ أن يقول ذلك الكاهن إن مُلْك بنى غسّان أعظم من مُلْك التبابعة على الرغم من أن الغساسنة لم يكونوا سوى مملكة صغيرة على حدود الروم لا قيمة لها حقيقية، على حين أن التبابعة كانوا يحكمون دولة كبيرة كاليمن ذات اتساع وتاريخ وحضارة معروفة لم يكن لدُوَيْلَة غسان منها شيء!

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٧٧ د. جواد علي.

ثم غريب أيضاً أن تترك القصةُ التوراةَ والإنجيلَ وتذهب إلى الزَّبور لتقول إنه قد وردت فيه البشارة بنبينا الكريم، مع أنه لم يأت في القرآن ولا في الحديث أن بشارةً مثل هذه موجودةٌ في الزبور!

وبالنسبة لسَطِيح ونبوءته لربيعة اللَّخْميّ هل يجوز في العقول أن يجرؤ كاهن كسطيح على أن يَجْبَه الملك ويُدْخِل الغمّ عليه بقول الحقيقة له كاملة ودون تَوْشِيَة، مع أنه كان في مندوحة عن هذا، إذ لم تكن النبوءة المزعجة لِتقع قبل بِضْعَةٍ وسبعين عاماً يكون هو نفسه خلالها أو الملك قد مات، وكان الله يحب المحسنين ؟

وحتى لو لم يمت أي منهما، ترى هل كان المَلِكُ المولِيَّةُ شمسُه يستطيع أن يؤذيه حينها بشيء ؟

وهذا إن جاز لنا أن نصدق أن سَطِيحاً يمكن أن يعرف شيئاً من أمور الغيب المحجوب عن البشر والجن والملائكة والحيوان جميعاً ؟

ثم أليس غريباً ألا يجد كسرى من بين كهّانه في مملكته الطويلة العريضة من يستطيع أن يَعْبُر له رؤياه حتى يرسل فيها لكاهن من كهان العرب ؟

كما أن من غير المعقول أن يجرؤ كاهن على أن يَجْبَه رسولَ كسرى بهذا التفسير المزعج للرؤيا، ثم يَجْبَه هذا به عاهلَه دون محاولة من جانبه لتلطيف وقع الأمر، ودَعْنا الآن من التحوير في تعبير الرؤيا كما قلنا من قبل عن رؤيا عاهل اليمن، تلك الرؤيا التي قام سطيح هو أيضاً بتفسيرها !

ومن الغريب في الأمر أن أيًّا من كبار رجال فارس، حين بدأ الفتح الإسلامى لبلادهم، لم يتذكر رؤيا عاهلهم هذه، مع أنها ليست من الأشياء التي يمكن أن

تُنْسَى بسهولة نظراً لخطورة موضوعها والظروف التي رُئِيَتْ وفُسِّرَتْ فيها كما لاحظنا، وإلا فكيف وصلتنا هذه الرؤيا وتفسيرها إذا كانت قد أُحَتْ من الذاكرة الفارسية ؟

ثم لا ينبغى أن يفوت أنتباهَنا ما جاء في تعبير شِقّ أنمار للرؤيا من عبارات وعقائد قرآنية كقوله: يوم الفصل - الذي ورد في سورة المرسلات -، وقوله أيضاً: (وربِّ السماء والأرض... إن ما أنبأتك به لَحَقّ)، (المأخوذ من سورة الذاريات)، وقوله: (يوم الميقات)، (وهو مقلوب العبارة القرآنية: (ميقات يوم معلوم) الموجودة في سورة الواقعة، بالإضافة إلى دعاء الأموات للقيام من مرقدهم للحشر والحساب!

كذلك هل يُعْقَل أن ترفض عُفَيْراء خِطْبة الملك لها ؟

إن ما قالته في تعليل هذا الرفض لا يدخل العقل طبعاً بحال!

ثم متى ذبح النبي قومه ؟ وهل الأنصار وحدهم هم الذين نصروه؟

فأين ذهب الصِّدّيق إذن والفاروق وذو النورين وعلي أبو الحسنين والحمزة وجعفر وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وابن عباس وبلال الحبشي وصُهَيْب الرومي وسلمان الفارسي وأبا ذر وآلاف بعد آلافٍ مثلهم من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة رضى الله عنهم جميعاً ؟

أما ارتجاج الديوان الكِسْرَوِيّ وانطفاء النيران في معابد زرادشت وجفاف بحيرة ساوة وما إلى ذلك فنُعَدِّي عنها لأنها لا حقيقة لها في واقع التاريخ، ولذلك لم تتعرض لها كتب المسلمين الأوائل بشيء، وهو ما يذكِّرنا بأسطورة أنشقاق الهيكل عند وقوع الصَّلْب طبقاً لرواية مؤلِّفي أو بالأحرى: ملفِّقى

الأناجيل!

ثم لا ينبغى أن نتجاهل الوتيرة الواحدة التي تجرى عليها كل هذه الأحاديث، إذ يقوم كل منها على السؤال من جانب تبع، والجواب من جانب الكاهن أو الكاهنة بلا أي تغييرٍ، حَذْوَك النعل بالنعل!

ومما لا يطمئن له قلب الباحث في خُطَب الجاهليين ورود عبارات لا يمكن أن تكون من كلامهم ولا صدرت عنهم، كما في الشاهد التالي، وهو من خُطْبة عامر بن الظَّرِب العَدْواني حين خُطِبَت ابنته عَمْرة، إذ جاء فيها قوله لقومه: فهل لكم في العِلْم العليم ؟

قيل: ما هو ؟ قد قلتَ فأصبتَ، وأخبرتَ فصدَقْتَ.

فقال: أموراً شتى وشيئاً شَيئاً، حتى يرجع الميت حيّاً، ويعود لا شيء شَيْئا، إذ من المستبعد تماماً أن يعرف الجاهليون مصطلح اللاشيء هذا، فهو لفظ منحوت لا أظنه أبداً قد سُكَّ ونزل إلى ساحة الكلام قبل العصر العباسي! بيد أن هذا لا يعني بالضرورة أن يكون النص كله مشكوكاً فيه، فإني لا أجد في نفسي شيئاً ذا بال من أن تكون هذه الخطبة، فيما عدا الكلمة المذكورة، قد قالها ذلك الرجل الجاهلي، إما كما هي أمامنا الآن أو بعد أن تكون الذاكرة أو الأقلام قد مسَّتْها بعضَ المسّ خلال رحلتها من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر التدوين، وبخاصة أنْ قد رواها لنا أمثال الميداني والجاحظ وابن عبد ربه حسبما ذكر أحمد زكي صفوت في ذيلها، فضلاً عن أن السجع فيها ليس متكلَّفاً ولا مطَّرِداً كما في بعض الخُطَب الأخرى.

كما أن في بعض تلك الخُطَب ترفاً ثقافياً وأدبياً لا يقدر عليه الجاهليون،

ومن ثم كنا لا نطمئن إليها. لنأخذ مثلا النص التالي:

كان قيس بن رفاعة يفد سنةً إلى النعمان اللَّخْمِيّ بالعراق، وسنةً إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسّاني بالشأم، فقال له يوماً وهو عنده: يا ابن رفاعة، بلغني أنك تفضّل النعمان عليَّ.

قال: وكيف أفضّله عليك أَبَيْتَ اللعن ؟ فوالله لَقَفَاك أحسن من وجهه، ولأُمّك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولَشِمالك أجود من يمينه، ولَحِرْمانك أنفع من نَدَاه، ولَقليلك أكثر من كثيره، ولَثِمَادك (أي قليل مائك) أغزر من غديره، ولَكُرْسِيّك أرفع من سريره، ولَجَدْولك أغمر من بحوره، ولَيَوْمك أفضل من شهوره، ولَشَهْرك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه (الحُقْب: القرن)، ولَزَنْدك أَوْرَى (أسرع إلى الاشتعال) من زنده، ولَجُنْدك أعزّ من جنده، وإنك لَمِنْ غسّانَ أرباب الملوك، وإنه لمن لَخْمٍ الكثير النُّوك (الكثير الحمقى)، فكيف أفضله عليك ؟

فمما لا يطمئن له القلب في قول قيس بن رفاعة للحارث بن أبي شَمِرٍ العبارةُ التالية: ولَيومك أفضل من شهوره، ولَشهرك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُكَ خير من حُقْبه.

إذ إن صياغة مثل تلك العبارة تحتاج إلى ما لا يحسنه الجاهليون من تنوُّقٍ وترفُّهٍ فكري وأسلوبي يتمثل في التصاعد بالمعنى من اليوم إلى الشهر إلى الحَوْل إلى الحُقْب في تسلسلٍ جذاب تأخذ كل حلقة فيه بيد جارتها في شكلٍ فنّي لا نظير له لدى الجاهليين.

أما سائر الخطبة فلا أجد فيه شيئاً يبعث على الريبة.

وإذا كان هناك من الخطب والأحاديث ما يرهقه السجع والجناس والموازنة وغير ذلك من زخارف البديع مما لا نعرفه في كلام الجاهليين ولا الإسلاميين، فإن هناك على العكس من ذلك خطبًا وأحاديثَ تخلو تماماً من مثل ذلك التكلف أو تكتفي من تزاويق البديع بالقليل الذي يسبغ على الكلام شيئاً من الرونق دون إسراف كما في المثال التالي من الحوار الذي دار بين قيسِ بن خُفَافٍ البُرْجُمِي وحاتمِ الطائي:

أتى أبو جبيل قيسُ بن خُفَاف البُرْجُمِي وحاتمَ الطائي في دماءٍ حَمَلها عن قومه فأسلموه فيها وعجز عنها، فقال: والله لآتِيَنَّ من يحملها عني.

وكان شريفاً شاعراً، فلما قدم عليه قال: إنه وقعت بين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدَّمتُ مالي، وكنتَ أملي. فإن تَحْمِلْها فرُبَّ حقٍّ قد قَضَيْتَه، وهَمٍّ قد كَفَيْتَه، وإن حال دون ذلك حائل لم أَذْمُمْ يومك، ولم أيأس من غدك. ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءً للبراجم جَـــمَّةً
فجئتك لما أسلمـــتني البراجمُ
وقالوا سفاها: لِمْ حـملتَ دماءنا
فقلت لهم: يكفي الحِمَالةَ حاتمُ
متى آتِهِ فيها يقل لِيَ: مـــرحبًا
وأهلا وسهلا، أخطـأتك الأشائمُ
فيحملها عني، وإن شئتُ زادني
زيادةَ من حَنَّتْ إليه المـــكارمُ
يعيش الندى ما عاش حاتُم طيِّءٍ

فإن مات قامت للســـخاء مآتمُ
ينادين: مات الجود مَعْكَ فلا نرى
مجيبًا له ما حام في الـجوّ حائمُ
وقال رجال: أنهب الـــعامَ مالَه
فقلـــت لهم: إني بذلك عالمُ
ولكنه يعطي مِنَ أموَال طـــيِّءٍ
إذا جلَّف المالَ الـحقوقُ اللوازمُ
فيعطي التي فيها الغـنى، وكأنه
لتصغيره تلك العطـــيةَ جارمُ
بذلك أوصاه عديٌّ وحَشـــرَجٌ
وسعدٌ وعبدُ الله، تلك الـقماقمُ

فقال له حاتم: إنْ كنتُ لأُحِبّ أن يأتيني مثلك من قومك. هذا مِرْباعي من الغارة على بني تميم، فخذه وافراً، فإن وفَّى بالحِمَالة، وإلا أكملتُها لك.

وهو مائتا بعيرٍ سوى بنيها وفِصَالها، مع أني لا أحب أن تُويِسَ قومك بأموالهم.

فضحك أبو جبيل وقال: لكم ما أخذتم منه، ولنا ما أخذنا منكم. وأي بعير دفعتَه إليَّ ليس ذَنَبُه في يد صاحبه فأنت منه بريء. فدفعها إليه وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعاً إلى قومه، فقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرْجُمَيُ أبو جُـــــــــبَيْلٍ
لهمٌّ في حِـــــــــمَالته طويـلِ
فقلت له: خذ المْـــــــرباع رَهْوًا
فإني لست أرضى بالقـــــــليـلِ
على حالٍ ولا عوَّدْتُ نفـــــــسي
على عِلاّتها عِلَـلَ البـــــــخيلِ
فخذها، إنها مائتـــــــــا بعير
سوى النـــــــابِ الرذيَّة والفَصِيلِ
فلا مَنٌّ عليك بهـــــــــا، فإني
رأيتُ المَنَّ يُزْرِي بالـــــــجزيلِ
فآب البرجمي، وما عـــــــليه
مِنَ أعْباء الحِـــــــمَالة من فتيلِ
يجرّ الذيل يَنْفُض مِـــــــذْرَوَيْهِ
خفـــيف الظهر من حملٍ ثقيلِ

ومثله في ذلك النص التالي، وهو من حوار دار بين قُبَيْصَة بن نعيم وامرئ القيس الشاعر والملك المشهور في مقتل والد الأخير: قدم على امرىء القيس بن حجر الكندي بعد مقتل أبيه رجالٌ من قبائل بني أسد، وفيهم قُبَيْصَة بن نعيم، يسألونه العفو عن دم أبيه، فخرج عليهم في قَبَاءٍ وخُفٍّ وعمامةٍ سوداءَ، وكانت العرب لا تعتمّ إلا في التِّرَات (أي في أوقات الثأر).

فلما نظروا إليه قاموا له ويَدَرَ إليه قبيصة فقال: إنك في المحلّ والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تُحْدِثه أيامه وتتنقّل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى

تذكير من واعظٍ ولا تبصير من مجرّب، ولك من سُؤْدَد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب مَخْتِدٌ يحتمل ما حُمِلَ عليه من إقالة العَثْرة ورجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهممُ إلى غاية إلا رجعتْ إليك فوجدتْ عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يَطُول رغباتِها ويستغرق طَلِباتها.

وقد كان الذي كان من الخَطْب الجليل الذي عَمَّتْ رَزِيّته نِزَارًا واليمن، ولم تُخْصَص بذلك كِنْدَة دوننا، للشرف البارع كان لحُجْر: التاج والعِمَّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد وطيب الشِّيَم. ولو كان يُفْدَي هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه. فأَحْمَدُ الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خِلالٍ ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً، فقُدْناه إليك بِنِسْعَةٍ تذهب مع شفرات حُسَامك بباقي قَصَرته، فنقول:

رجلٌ أمتُحِن بهالكٍ عزيزٍ فلم يستلَّ سخيمتَه إلا تمكينه من الانتقام، أو فداءٌ بما يروح على بني أسد من نَعَمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحَن على البُرَآء، وإما أن وادعْتَنا إلى أن تضع الحوامل فتُسْدَل الأُزُر، وتُعْقَد الخُمُر فوق الرايات. فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد عَلِمَتِ العرب أنه لا كُفْءَ لحُجْرٍ في دم وأني لن أعتاض به جملاً ولا ناقةً فأكتسب به سُبّة الأبد، وفَتَّ العَضُد، وأما النَّظِرة فقد أوجبتْها الأجنّةُ في بطون أمهاتها، ولن أكون لعَطَبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حَنَقًا، وفوق الأسنّة عَلَقاً:

إذا جالت الحرب في مـــأزقٍ

تصافح فيه المنايا الـنفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟

قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروهٍ وأذيّة، وحربٍ وبليّة. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يتمثل:

لعلّكَ أن تَسْتَوْخِم الوِرْدَ إن غَدَتْ

كتائبُنا في مأزِق الحرب تُمْطِرُ

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه. فرُوَيْداً ينفرجْ لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حِمْيَر. ولقد كان ذِكْر غير هذا بي أَوْلَى إذ كنتَ نازلا برَبْعِي، ولكنك قلتَ فأوجبتَ.

فقال قبيصة: ما يُتَوَقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب.

فقال امرؤ القيس: هو ذاك.

❧ ❧ ❧

الخطب الخالدة:

وكذلك هذه الخطبة التي قالها عبد المطلب بن هاشم جد النبي في حضرة سيف بن ذى يَزَن حين ذهب إليه وفد العرب يهنئونه على انتصاره على الأحباش وإخراجه إياهم من بلاده: لما ظفر سيف بن ذي يَزَن بالحبشة أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنّئه وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فاستأذنه في الكلام، فأذن له، فقال:

إن الله تعالى أيها الملك أَحَلَّك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، باذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أَرُومَتُه، وعزَّتْ جرثومتُه، وثبَتَ أصله، وبَسَقَ فرعه، في آكرم معدن، وأطيب موطن. فأنت، أَبَيْتَ اللعن، رأْسُ العرب وربيعُها الذي به تُخْصِب، ومَلِكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العِمَاد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. سَلَفُك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف، ولن يَهْلِك من أنت خَلَفُه، ولن يَخْمُل من أنت سَلَفُه. نحن، أيها الملك، أهل حَرَم الله وذمّته وسدنة بيته. أَشْخَصَنا إليك الذي أبهجك بكشف الكَرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المَرْزَئة.

ومثلها في ذلك خطبة شيخ البطحاء أبى طالب والد الإمام علي عليه السلام وعم النبي الكريم عندما ذهب معه لخِطْبة خديجة بنت خُوَيْلِد له، وهذا نصها: خَطَبَ أبو طالب حين زواج النبي بالسيدة خديجة فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من زَرْع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراماً وبيتاً محجوجاً، وجعلَنا الحكّام على الناس.

ثم إن محمد بن عبد الله ابنَ أخي من لا يُوَازَن به فتًى من قريش إلا رَجَحَ عليه برًّا وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونُبْلاً.

وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظِلٌّ زائلٌ، وعاريَّةٌ مسترجَعَة، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ، ولها فيه مثل ذلك. وما أحببتم من الصَّدَاق فعَلَيَّ.

❀ ❀ ❀

الخطب في العصر الجاهلي:

وهناك ضرب آخر من الخطب المنسوبة للعصر الجاهلي تثير نوعاً آخر

من التساؤلات، وهي الخطب التي يقال إن بعضاً من وجوه العرب ورؤسائهم قد ألقَوْها في قصر العاهل الكِسْرَوِيّ بالمدائن وبمحضرٍ منه ودار الجدال بينه وبينهم حول المقارنة بين فضائل العرب وغيرهم من الأمم بما فيها فارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان:

هل من المعقول أن يجرؤ أولئك العرب، الذين لم تكن لهم في ذلك الحين دولة تحميهم من بطش كسرى إذا فكر في البطش بهم، على أن يتفاخروا في وجهه ذلك الفخر المجلجل الذي يرفع العرب فوق كل الأمم ؟

ثم إن الرواية تذكر أن وفوداً من الصين والهند والروم كانت موجودة في ذلك الاجتماع تتبادل التفاخر والتباهي بأصولها وأعراقها، فهل كان هناك في تلك الأزمان ما يمكن ببساطة، ودون أفتئات على حقائق الحوادث لو صح ما تقوله لنا الروايات، أن نسميه: حوار القوميات أو حوار الحضارات ؟

ولكن فلنقرأ أولاً شيئاً من هذه الخطب وقصتها حتى يكون الكلام عن بينة. تقول الرواية: قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضَّلهم على جميع الأمم لا يستثني فارسَ ولا غيرها.

فقال كسرى، وأخذته عزة المُلْك: يا نعمان، لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حالة من يَقْدَم عليَّ من وفود الأمم فوجدتُ للروم حظاً في اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها دِينًا يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها. ورأيتُ الهند نحوا من ذلك في حكمتها وطبّها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها

وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها.

والترك والخَزَر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم وتُدَبِّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة. يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة.

قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها، فأفضل طعام ظفر به ناعِمُهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمِها وخوف دائها. وإنْ قَرَى أحدهم ضيفاً (أي أطعمه) عَدَّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عَدَّها غنيمة. تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التَّنُوخِيّة التي أسس جَدِّي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوّها فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإن لها مع ذلك آثارا ولَبُوسًا وقرى وحصونا وأموراً تشبه بعض أمور الناس، يعنى اليمن، ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس!

قال النعمان: أصلح الله الملك. حقّ لأمّة المَلِكُ منها أن يَسْمُوَ فضلها ويَعْظُم خَطْبها وتعلو درجتها، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له. فإن أَمَّنني من غضبه نطقتُ به.

قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمّتك أيها الملك فليست تُنَازَع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلّها ويُحْبُوحة عِزّها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك.

وأما الأمم التي ذكرتَ فأيّ أمة تقرنها بالعرب إلا فَضَلَتْها.

قال كسرى: بماذا ؟

قال النعمان: بعزها ومَنَعَتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتها ووفائها: فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطّدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجُنَّتهم السيوف، وعُدَّتهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عِزّها من الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما حُسْن وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المُنْحَفَة والروم والترك المشوَّهة المقشَّرة.

وأما أنسابها وأحسابها فليست أمةٌ من الأمم إلا وقد جَهِلَتْ آباءها وأصولها وكثيرا من أوّلها حتى إن أحدهم ليُسْأَل عمن وراء أبيه دِنْيًا (أي بعده مباشرة) فلا يَنْسُبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبًا فأبًا، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يُدْعَى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها فإن أدناهم رَجُلاً الذي تكون عنده البَكْرة والنابِ عليها بلاغُهُ في حُمُوله وشِبَعه وريّه فيَطْرُقه الطارق الذي يكتفي بالفَلْذة ويجتزى بالشّربة

فيَعْقِرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكْسِبه حسن الأُحدوثة وطيب الذكر.

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس.

ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعفّ النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع، ومطاياهم التي لا يُبْلَغ على مثلها سَفَر، ولا يُقْطَع بمثلها بلدٌ قَفْر.

وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نُسُكه بدينه أنّ لهم أشهُرًا حُرُمًا وبلدا محرَّماً وبيتاً محجوجاً يَنْسِكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيَلْقَي الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رَغْمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذًى.

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة، فهي وَلْثٌ (أي عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهنا بدَيْنه فلا يَغْلَق رهنه ولا تُخْفَر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يُفْنِيَ تلك القبيلة التي أصابته أو تَفْنَي قبيلته لما أُخْفِر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك: (يَئِدُون أولادهم) فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج.

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفْتَ منها فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً لها فعمدوا إلى أجلِّها وأفضلها فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً وأطيبها لحوماً وأرقها ألباناً وأقلها غائلة وأحلاها مضغة، وإنه لا شيء من اللُّحْمان يعالَجَ ما يعالَج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تحارُبهم وأَكْل بعضهم بعضاً وتَرْكهم الانقياد لرجل يَسُوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أَنِسَتْ من نفسها ضعفاً وتخوَّفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يُعْرَف فضلهم على سائر غيرهم فيُلْقُون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأَزِمّتهم.

وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخَرَاج والوَطْث (أي الوطء) بالعَسْف.

وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جَدّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجبش له على مُلْكٍ متسقٍ وأمرٍ مجتمعٍ فأتاه مسلوباً طريداً مُسْتَصْرِخاً.

ولولا ما وَتَرَ به من يليه من العرب لَمَال إلى مجالٍ ولَوَجَد من يجيد الطِّعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار.

فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك. ثم كساه من كُسْوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحِيرَة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى مِنْ

تنقُّص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زُرَارَة التميميَّيْن وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريَّيْن وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلاَّثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريَّيْن وإلى عمرو بن الشريد السُّلَمِيّ وعمرو بن مَعْدِيكَرِب الزُّبَيْدي والحارث بن ظالم المُرِّيّ. فلما قدموا عليه في الخَوْرَنق قال لهم:

قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرْب جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفتُ أن يكون لها غَوْر أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العربَ خَوَلاً (أي خُدّامًا) كبعض طماطمته «**الطماطمة: الذين لا يحسنون الكلام**» في تأديتهم الخَرَاج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله.

فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى وما ردَّ عليه، فقالوا: أيها الملك، وفقك الله!

ما أحسن ما رددت، وأبلغ ما حَجَجْتَه به، فمُرْنا بأمرك وأدْعُنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما مَلَكْتُ وعَزَزْتُ بمكانكم وما يتخوَّف من ناحيتكم. وليس شيءٌ أحبَّ إليَّ مما سدَّد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم. والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ أو حدَّثته نفسه. ولا ينطقْ رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل، وليكن أمرٌ بين ذلك تظهر به وثاقة حُلُومكم وفَضْل منزلتكم وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم

التي وضعتُكم بها - فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكونَنَّ ذلك منكم فيجدَ في آدابكم مطعنا، فإنه ملكٌ مترفٌ وقادرٌ مسلَّط.

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلَل الملوك، كلّ رجل منهم حُلّة، وعمَّمه عمامة، وختَّمه بياقوتةٍ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبةٍ مَهْرِيّة وفرسٍ نَجِيَّةٍ، وكتب معهم كتاباً: أما بعد، فإن المَلِك ألقى إليَّ من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد فَهِم مما أحببتُ أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزتْ دونه بمملكتها وحَمَتْ ما يليها بفضل قوَّتها تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ، أيها الملك، رَهْطاً من العرب لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فلْيسمع الملك ولْيُغْمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم، ولْيُكْرِمْني بإكرامهم وتعجيل سَرَاحهم.

وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم. فخرج القوم في أُهْبَتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم.

فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسيَّ عن يمينه وشِماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه، وأقام الترجمانَ ليؤدي إليه كلامهم ثم أذن لهم في الكلام.

جمالية الخطابة:

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركبٌ صعب، والعجز مركبٌ وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أَميرَ بها. شر الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا المحالة.

أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحلّ. حَسْبُك من شرٍّ سماعه. الصمت حُكْمٌ، وقليلٌ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدَّد نفَّر، ومن تراخى تألَّف.

فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: ويحك يا أكثم ! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامك في غير موضعه.

قال أكثم: الصدق ينبيء عنك لا الوعيد.

قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى.

قال أكثم: رُبَّ قولٍ أَنْفَذُ من صَوْل.

ثم قام حاجب بن زُرَارَة التميمي فقال: وَرِيَ زَنْدك، وعَلَتْ يدك، وهِيبَ سلطانك. إن العرب أمة قد غَلُظَتْ أكبادها واستحصدت مِرَّتها ومنعت دِرَّتها، وهي لك وامقة ما تألَّفْتَها، مسترسلة ما لاَيْنْتَها، سامعة ما سامحتها، وهي

العلقم مرارةً، والصابُ غضاضةً، والعسل حلاوةً، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة. إن نَؤُبْ لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا، وإن نَذُمّ لم نُخَصَّ بالذم دونها.

قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها!

قال حاجب: بل زئير الأُسْد بصَوْلَتها.

قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رِشَاؤه كَثُرَ مَتْحُه، ومن ذهب ماله قلَّ مَنْحُه. تناقُل الأقاويل يعرِّف اللُّبّ، وهذا مقامٌ سيُوجف بما ينطق به الرَّكْب وتَعْرِف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب. ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك المعينون. خيولنا جَمَّة، وجيوشنا فخمة. إن استنجدتَنا فغَيْرُ رُبُض، وإن استطرقتَنا فغير جُهُض، وإن طلبتنا فغير غُمُض. لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر. رماحنا طوال، وأعمارنا قصار.

قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأمةٌ ضعيفة.

قال الحارث: أيها الملك، وأنَّى يكون لضعيفٍ عِزّة، أو لصغيرٍ مِرّة ؟

قال كسرى: لو قَصُرَ عمرك لم تستول على لسانك نفسُك.

قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرِّراً بنفسه على الموت فهي منيَّةٌ استقبلها، وجِنانٌ استدبرها. والعرب تعلم أني أبعث الحرب قُدُماً، وأحبسها وهي تَصَرَّف بها، حتى إذا جاشتْ نارها وسَعَرَتْ

لظاها وكشفتْ عن ساقها جعلتُ مَقادها رمحي، وبرقها سيفي، ورعدها زئيري، ولم أقصِّر عن خوض خَضْخَاضها حتى أنغمس في غمرات لُجَجها، وأكون فُلْكًا لفرساني إلى بُحْبُوحة كبشها فأستمطرها دماً، وأترك حُمَاتها جَزَر السِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَم «**أي أقتلهم وأتركهم للسباع والنسور تنهش جثثهم**».

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو ؟

قالوا: فَعَاله أَنْطَقُ من لسانه.

قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أَحْشَد، ولا شهوداً أَوْفَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلَميّ فقال: أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام في السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتَبَرة، وفي كثير ثِقْلَة، وفي قليل بُلْغَة، وفي الملوك سَوْرَة العِزّ، وهذا منطقٌ له ما بعده، شَرُفَ فيه مَنْ شَرُفَ، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدِك (أي عطائك). إن في أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدًا. إن أَوْرَيْنا نارا أَثْقَبْنا، وإن أَودَ دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لِجوارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يُحْمَد الصَّدَر، ويستطاب الخبر.

قال كسرى: ما يقوم قَصْدُ منطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك.

قال عمرو: كفى بقليلِ قصدي هادياً، وبأيسر إفراطي مُخْبِرًا. ولم يُلَمْ مَنْ غَرَبَتْ نفسه عما يعلم، ورَضِي من القصد بما بلغ.

قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء ينطق به. أجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشده إرشادا. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصّة، وعِي المنطق أشدّ من عِي

السكوت، وعِثَار القول أنكأ من عثار الوَعْث، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نَهْوَى، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة، وتركي ما أعلم مِنْ نفسي ويعلم مَنْ سمعني أنني له مطيق أَحَبُّ إلى من تكلُّفي ما أتخوَّف ويُتَخَوَّف مني. وقد أوفدَنا إليك مَلِكُنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْم حاملُ المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة.

قال له كسرى: نطقتَ بعقلٍ، وسَمَوْتَ بفَضْلٍ، وعَلَوْتَ بنُبْل.

ثم قام علقمة بن عُلاَّثة العامري فقال: نَهَجَتْ لك سُبُل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوَالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه. إنا، وإن كانت المحبة أحضرتْنا والوفادة قرّبتْنا، فليس مَنْ حَضَرك منا بأفضل ممن غَرَب عنك. بل لو قِسْتَ كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدتَ له في آبائه دِنْيًا أنداداً وأكفاء كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف، يحمى حماه، ويُرْوِي نداماه، ويذود أعداه، لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أيها الملك، من يَبْلُ العربَ يعرف فضلهم، فاصطنعْ العرب، فإنها الجبال الرواسي عِزّاً، والبحور الزواخر طَمْياً، والنجوم الزواهر شرفاً، والحصى عدداً، فإن تعرف لهم فضلهم يُعِزّوك، وإن تستصرخْهم لا يخذلوك.

قال كسرى، وخَشِيَ أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه:

حَسْبُكَ! أَبْلَغْتَ وأَحْسَنْتَ!

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المَرَاشِد، وجنَّبَك

المصائب، ووقاك مكروه الشَّصَائب (الشدائد). ما أحقَّنا، إذ أتيناك، بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرك، ولا يزرع لنا حقداً في قلبك! لم نَقْدَم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لِتَعْلَم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنّا في المنطق غير مُحْجِمين، وفي الناس غير مقصِّرين. إن جُورِينا فغير مسبوقين، وإن سُومِينا فغير مغلوبين.

قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين «**وهو يعرِّض به في تركه الوفاء بضمانه السواد**».

قال قيس: أيها الملك، ما كنتُ في ذلك إلا كَوَافٍ غُدِرَ به، أو كخافر أُخْفِرَ بذمّته.

قال كسرى: ما يكون لضعيفٍ ضمانٌ، ولا لذليلٍ خَفَارة.

قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما أُخْفِرَ من ذمتي أحقّ بإلزامي العارَ منك فيما قُتِلَ من رعيتك، وانْتُهِكَ من حُرْمتك.

قال كسرى: ذلك لأن من ائْتَمَنَ الخانَة (أي الخَوَنة)، وأستنجد الأَثَمَة ناله من الخطأ ما نالني، وليس كل الناس سواء. كيف رأيتَ حاجب بن زرارة لِمَ يُحْكِم قُوَاه فيُبْرِم، ويَعْهَد فيُوفِي، ويَعِد فيُنْجِز ؟

قال: وما أحقَّه بذلك ! وما رأيتُه إلا لي.

قال كسرى: القوم بُزُلٌ «**البازل: الناقة المسنّة**»، فأفضلها أشدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كَثْرَ فنون المنطق، ولَبْسُ القول أعمى من حِنْدِس الظلماء، وإنما الفخر في الفَعال، والعَجْز في النجدة، والسؤدد مطاوَعَة القدرة. وما أَعْلَمَك بقدْرنا، وأَبْصَرَك بفضلنا. وبالحَرَي إن

أدالت الأيام، وثابَت الأحلام، أن تُحْدِث لنا أموراً لها أعلام.

قال كسرى: وما تلك الأعلام ؟

قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمرٍ يُذْكَر.

قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكَر ؟

قال: ما لي علمٌ بأكثر مما أخبرني به مُخْبِر.

قال كسرى: متى تكاهَنْتَ يا ابن الطفيل ؟

قال: لستُ بكاهن، ولكني بالرمح طاعن.

قال كسرى: فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء، ما أنت صانع ؟

قال: ما هَيْبَتي في قفاي بدون هيبتي في وجهي، وما أَذْهَبَ عيني عَيْثٌ، ولكنَ مطاوَعة العَبَث.

ثم قام عمرو بن مَعْدِ يكَرِب الزُّبَيْدِيّ فقال: إنما المرء بأصغرَيْه:

قلبه ولسانه، فبلاغُ المنطق الصواب، ومِلاكُ النُّجْعة الارتياد، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة، فاجْتَبِذْ (اجتذبْ) طاعتنا بلفظك، واكتظم بادِرَتنا بحِلْمك، وأَلِنْ لنا كَنَفك يَسْلَس لك قِيَادنا، فإنا أناسٌ لم يُوَقِّسْ صَفَاتَنا (أي لم يخدش صخرتنا) قِرَاعُ مناقير مَنْ أراد لنا قَضْمًا، ولكنْ مَنَعْنا حِمَانا مِنْ كلّ مَنْ رامَ لنا هَضْمًا.

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِّيّ فقال: إن من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق المَلَق، ومن خَطَل الرأي خفة الملك المسلَّط، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن الائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لِقبول ذلك منا

بخَليق، ولا للاعتماد عليه بحَقيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام وَلْث العقود. والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت مِنْ قِبَلك ميل أو زلل.

قال كسرى: من أنت ؟

قال: الحارث بن ظالم.

قال كسرى: إن في أسماء آبائك لَدليلاً على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر.

قال الحارث: إن في الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلْمَ إلا مع القدرة، فلْتُشْبِه أفعالُك مجلسَك.

قال كسرى: هذا فتى القوم. ثم أضاف: قد فهمتُ ما نطقتْ به خطباؤكم، وتفنَّن فيه متكلموكم. ولولا أني أعلم أن الأدب لم يثقِّف أَوَدكم ولم يُحْكِم أمركم وأنه ليس لكم مَلِكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطقَ الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتُم بما استولى على ألسنتكم وغَلَبَ على طباعكم لم أُجِزْ لكم كثيرا مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أَجْبَه وفودي أو أُحْنِق صدورهم، والذي أُحِبّ من إصلاح مُدَبَّركم وتألُّف شواذّكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلتُ ما كان في منطقكم من صواب، وصفحتُ عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى مَلككم، فأَحْسِنوا موازرته، والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أَوَدَهم، وأَحْسِنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة.

ꕥ ꕥ ꕥ

تعليقاً على جمالية الخطابة:

وأول شيء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذي لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحيرة في شمال شرق الجزيرة العربية ؟

وكيف ورد في كلامه مصطلحاً الوزن والقافية الشِّعْري، وهما لفظان لم تكن العرب تعرفهما في ذلك المعنى آنذاك ؟

ثم إن خطبة أكثم بن صيفي ليست في الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التي تُنْسَب إليه وُصِل بعضها ببعض وصلاً متعسَّفًا، إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب، وإن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة في حد ذاتها، لكننا نستغرب أن تكون هذه هي الخطبة التي أنتدب النعمان بن المنذر أكثم لإلقائها في حضرة كسرى تنبيها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتاً.

كما وردت في الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما نتصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام البليغ، ألا وهي عبارة البلاغة الإيجاز.

كذلك هناك كلمة شريعة التي استعملها النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هو: أكان العرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُسْتَعْمَل له بعد الإسلام ؟

وهل كان العرب أصلاً يسمّون ما هم عليه من تقاليد جاهلية: شريعة ؟

لقد بحثت في الموسوعة الشعرية الضوئية عن شواهد في الشعر الجاهلي

لهذه الكلمة فلم أجد إلا بيتاً واحداً لا علاقة له البتة بهذا المعنى.

ثم هل تُوَاتِي نَفْسَ أي عربي في محضر كسرى أن يدعو الفرس بالأعاجم مثلما فعل الحارث بن عباد البكري، وهي كلمة مسيئة في حقهم كما نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجماوات ؟

وبالمثل هل من السهل قبول ما جاء في القصة من أن عمرو بن الشريد قد جَبَهَ ملك الفرس بهذا الكلام الجافي الذي يحمل من التحدي الساطع ما يحمل: لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك.

إن في أموالنا منتقَداً، وعلى عزّنا معتمَداً ؟

أو أن يقرّع الحارث بن ظالم المرّيّ كسرى بهذه الكلمات التي تنصحه بالارتفاع إلى مستوى السلوك اللائق بالملوك: إن في الحق مَغْضَبة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلم إلا مع القدرة. فلْتُشْبِهْ أفعالُك مجلسَك ؟

أو أن يهدده عامر بن الطفيل بما لوّح له به من إمكان أنتقاض العرب عليه وحربهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قال، بينما هو غير مبالٍ، وكأنه لم يقل شيئاً ؟

وإنْ خفّفَ من ذلك تنبيهُ النعمان للعاهل الفارسي منذ البداية إلى خشونة رسله وتعليق كسرى في النهاية بأنه إنما يصفح عما في كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملوك.

وبالمناسبة فخُطَب أشراف العرب في قصتنا هذه قد صُبَّتْ في لغةٍ أقرب إلى الترسُّل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون في مثل ذلك الموقف وتلك الظروف.

وفي نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصل تاريخي وأنها قد وصلت المدوّنين في العصر العباسي في خطوطها العامة ثم توسع فيها الرواة فيما بعد، فأضافوا إليها كثيراً من التفاصيل، وجهدوا أن يردّوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون يتنقصّون به العرب في العصر العباسي ويقلّلون من شأنهم لفتحهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم.

ولا شك إن إشارة القصة في بدايتها إلى وجود الترجمان في تلك المناسبة لَتُشَكِّل لمسة واقعية تزيد مصداقيتها، كما أن ذكر القصة لمعايب العرب وبعض من أشتركوا في هذا الموقف من خطباء هو مما يعضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلاً على نحو من الأنحاء.

على أن ثَمَّةَ نصوصاً أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكلف في هندسة العبارة والاستقصاء في المعنى والتشقيق في التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا نثق في جاهليتها، كوصف عصام الكِنْدِيّة لأم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني في النص التالي:

لما بلغ الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدَة جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني وكمالها وقوة عقلها أراد أن يتزوجها، فدعا امرأةً من كِنْدَة يقال لها: عِصَام، ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: أذهبي حتى تَعْلَمي لي عِلْمَ ابنة عوف. فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامةَ بنت الحارث فأعلمتها ما قَدِمَتْ له، فأرسلت أمامةُ إلى ابنتها وقالت:

أَيْ بُنَيّة، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجهٍ وخلق، وناطِقيها فيما استنطَقَتْكِ فيه.

فدخلت عصام عليها فنظرتْ إلى ما لم تر عينُها مثلَه قَطُّ بهجة وحسنا وجمالاً، فإذا هي أكمل الناس عقلاً وأفصحهم لساناً، فخرجت من عندها وهي تقول: تَرَكَ الخداعَ مَنْ كَشَفَ القناع، فذهبت مثلاً.

ثم أقبلتْ إلى الحارث فقال لها: ما وراءك يا عصام ؟

فأرسلها مثلاً. قالت: صَرَّحَ المَخْضُ عن الزبد، فذهبت مثلاً.

قال: أخبريني. قالت: أُخْبرك صدقًا وحَقًّا. رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعرٌ حالكٌ كأذناب الخيل المضفورة. إن أَرْسَلَتْه خلْتَه السلاسل، وإن مَشَطَتْه قلتَ: عناقيدُ كَرْم جلاها الوابلُ، وحاجبين كأنهما خُطّا بقلم، أو سُوِّدَا بحُمَم، قد تقوّساً على عَيني الظبية العَبْهَرَة «**البيضاء الرقيقة البَضّة**»، التي لم يَرُعْها قانص ولم يَذْعَرها قَسْوَرَة (أي الأسد)، بينهما أنفٌ كحَدّ السيف المصقول، لم يخَنْسَ به قِصَرٌ ولم يمض به طول، حَفَّتْ به وَجْنتان كالأُرْجُوَان، في بياض مَحْض كالجُمَان، شُقَّ فيه فم، كالخاتم لذيذ المُبْتَسَم، فيه ثنايا غُرٌّ ذواتُ أَشَر، وأسنانٌ تبدو كالدُّرَر، وريقٌ كالخمر له نَشْر الروض بالسَّحَر، يتقلب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يجلبان ريقاً كالشهد، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكِّب في صدرٍ كصدر تمثال دمية، يتصل به عَضُدان ممتلئان لحمًا، مكتنزان شحمًا، وذراعان ليس فيهما عَظْمٌ يُحَسّ، ولا عِرْقٌ يُجَسّ، رُكِّبَتْ فيهما كفّان دقيقٌ قَصَبُهما، ليّنٌ عَصَبُهما، تَعْقِد إن شئتَ منهما الأنامل، وتُرَكَّب الفصوص في حُفَر المفاصل، وقد ترتَّع في صدرها حُقّان كأنهما رمانتان يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُوِيَ كطَيّ القَبَاطِي «**أي الملابس الرقيقة المُتَّخَذَة من الكَتّان**» المُدْمَجَة، كُسِيَ عُكَنًا «**العُكَن: ثنيّات البطن**» كالقراطيس المُدْرَجَة،

تحيط تلك العُكَنُ بسُرَّة كَمُدْهُن العاج المجلوّ، خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر، تحته كَفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ، كأنه دِعْصُ رملٍ، لبَّده سقوط الطل، يحمله فخذان لفَّاوان، كأنهما نَضيد الجُمَان، تحتهما ساقان خَدْلَتان، كالبَرْدِيّ وُشِّيَتَا بشعرٍ أسود، كأنه حلَق الزَّرَد، يحمل ذلك قدمان، كحَذْو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟

فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنَظْمٍ أو نَثْر.

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوَّجه إياها.

إن هذا لكتابة تقرير فني في مسابقات العهر - التي يسمونها زوراً بمسابقات ملكات الجمال- يضع نُصْبَ عينيه تقديم وصف تفصيلي لكل ملمح أو عضو من أعضاء الفتاة المشتركة في تلك المسابقات أشبهُ منه بحديثٍ خاطبةٍ إلى ملك من ملوك العرب في تلك العصور، وبخاصة أن الوصف لم يتنزه عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تمتعه وتَسُرّه !

والطريف أنه، بعد كل ما قالته المرأة الكِنْدِيّة في وصف جمال الفتاة، تعود فتقول:

فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر.

فهل تراها تركتْ شيئاً لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن المرأة التي

يبغي خِطْبَتها ؟

ثم إن مقدمة النص تقول: إن الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدَة قد بلغه جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني وكمالها وقوة عقلها.

أي أنه كان على علم بجمالها وكمالها، فما معنى كل هذا الوصف الدقيق المفصَّل الذي لا يدل إلا على شيء واحد:

أنه لم يكن يعرف عن الفتاة شيئاً ؟

وإلى جانب هذا لا ينبغي أن ننسى أن تعبيرات مثل: خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر.. فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟

لا تصدر غالباً إلا عن مسلم في العصر العباسي فنازلاً حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات الماجنة التي يُوهِم ظاهرُها بالتدين رغم ذلك، وهو مجون تشفّ عنه العبارة التالية بدورها أحسن شَفّ:

تحته كَفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ.

فضلاً عما فيها من ترفٍ في تذوق الجمال النسائي لم يكن يعرفه الجاهليون، إلى جانب التلاعب البديعيّ المعقَّد الذي لم يكن لهم به عهد، إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية وردٌّ للأعجاز على الصدور في وقت معاً.

وهناك أيضاً المقابلة بين (النظم والنثر) في الجملة التالية التي وردت قرب نهاية النص: غير أنه أحسنُ ما وصفه واصفٌ بنَظْم أو نَثْر.. بما يدل على الشمول مما لم يكن الجاهليون يعرفونه في تعبيراتهم، بل إنني لا أظنهم كانوا يستخدمون هاتين الكلمتين بالمعنى الاصطلاحي الذي عُرِفَتَا به في

دنيا الأدب والنقد فيما بعد!

كذلك من حق الباحث أن يتساءل فيما يخص هذه القصة ذاتها في مرحلتها اللاحقة قائلاً: أمن المعقول أن أُمًّا من الأمهات حين تريد أن تنصح بنتها في ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة المجنَّسة المتوازنة «**رغم ما في السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة**».

كما في النص التالي الذي تخاطب فيه أمامةُ بنت الحارث بنتَها أم إياس التي مر بنا قبل قليل وصف عصام الكندية العجيب لها ؟:

أيْ بُنَيَّة، إن الوصية لو تُرِكَتْ لفَضْل أدب تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنتْ عن الزوج لِغَنَي أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِق الرجال.

أيْ بُنَيَّة، إنك فارقتِ الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخلَّفْتِ العُشّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بمُلْكه عليك رقيبًا ومَلِيكًا، فكوني له أَمَةً يكن لك عبداً وشيكاً.

يا بُنَيَّة، أحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً:

الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحُسْن، والماء أطيب الطِّيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مَغْضَبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعياله، فإن

الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل حسن التدبير، ولا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره.

ثم اتَّقِي من ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحًا، فإن الخَصْلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً، يكن أشد ما يكون لك إكراماً، وأشد ما تكونين له موافَقَة، يكن أطول ما تكونين له مرافَقَة.

وأعلمي أنك لا تَصِلين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يَخِير لكِ.

لا أظن أن الأم، حتى لو كانت أديبة، يمكن أن تنهج في حديثها الشفوي المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تُخَلِّف وراءها عملاً من الأعمال الأدبية التي تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تحتشد لذلك وتجتهد في كتابة نصيحة محبَّرة موشَّاة لبنتها ولكل بنات العالمين، وكذلك للقراء والأدباء أيضاً، على مدار الدهر، لكن هذا شيء آخر غير ما نحن بسبيله الآن. أم ترى هناك من يقول معترضاً: ومن أدراك بأن تلك الأم لم تُرِدْ ذلك ولم تفعله، وبخاصة أننا هنا إزاء مَلِكٍ وزوجته وحماته لا ناسٍ من عُرْض الطريق ؟

على كل حال فإني معجبٌ إعجاباً شديداً بكلام الأم وأجده يرن في سمعي رنين الذهب، ويهَشّ قلبي إليه هَشَاشَ الأرض العطشى لوابل الغيث المُحْيي!

والواقع أن أنشغالي بمسألة بروز السجع والجناس وما إليه في كثير من

خطب الجاهليين سَبَبُه افتقادي لذلك في نظيراتها من خُطَب الرسول الأعظم والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما جاء عَفْوًا بين الحين والحين.

فلماذا كان كثير من الخُطَب التي وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخُطَب في صدر الإسلام بوجه عام، فضلاً عن أن السجع والمحسنات البديعية فيها كانت، كما يُفْهَم من الرواية، أمراً ارتجاليًّا ؟

فهل يستطيع الخطباء، وبالذات في ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى هذه التزاويق ويصبح الحرص عليها جزءاً من التركيبة الذهنية الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلاماً مُحَسَّناً بالبديع على هذا النحو الذي نراه في عدد من الخطب الجاهلية ؟

هذه هي النقطة التي تحيك في صدري بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التي يؤدي إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ.

أيكون المسلمون الأوائل قد نفروا من الجري خلف السجع بسبب أرتباطه بالكهان ؟

أتراهم كانوا يُلْقُون بكل ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى الإقناع وتحويله إلى واقع تطبيقي بدلاً من المتعة الفنية المتمثلة هنا في البديع في حد ذاتها، إذ كانوا بصدد تكوين دولة تضم العرب جميعاً لأول مرة في تاريخهم المعروف، ثم بصدد صراع ضارٍ مع القوى العالمية الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكن لديهم الوقت ولا البال للاهتمام بالسجع والمحسنات

البديعية ؟

أترى الجاهليين، وهم الأميون، كانوا يعوّلون على موسيقى السجع والجناس والتوازن لتسهيل حفظ النصوص النثرية كالخطب والمنافرات؟

مرة أخرى أجدني أقول: هذه هي النقطة التي تحيك في صدري بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التي يؤدي إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ.

ومع ذلك فها هو ذا الجاحظ يقرر أن العرب في جاهليتهم كانوا يعتمدون السجع في بعض ضروب الخطابة كالمنافرة والمفاخرة، والترسُّل في بعضها الآخر كما هو الحال في خطب الصلح والمعاهدات [١].

وهو ما يدل على أنه لا يجد فيها شيئاً مما يحيك في صدري تجاه هذه المسألة.

وأحسب أن موقف الجاحظ أحرى بالقبول من موقفي لأنه كان أعرف بالأدب العربي قبل الإسلام من واحد مثلي لقربه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسوعية بالثقافة العربية وآدابها كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديباً كبيراً، وبلاغياً عجيباً، وناقداً ذواقة للكلام، ودارساً ومحللاً للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلماً يصعب أن يوجد له نظيرٌ مثله.

هذا، وقد وردتْنا عن الجاهليين ضروب من الخطب المختلفة الموضوعات صحيحة كانت أو مصنوعة:

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ص ٢٨٩- ٢٩٠ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

فمنها الخطب الوعظية كخُطَب قُسّ بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ، وخطب الصلح بين المتخاصمين كخطبة مَرْثَد الخير في الإصلاح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب.

ومنها خطب التعزية كتلك التي عزَّتْ بها وفودُ العرب سلامةَ ذا فائش في موت ابنه، وكان من بين المتكلمين يومها الملبَّب بن عوف وجعادة بن أفلح، وكذلك خطبة أكثم بن صيفي في تعزية عمرو بن هند في ابن أخيه.

ثم خطب النكاح كالخُطْبة التي ألقاها شيخ البطحاء أبو طالب ﷺ في خِطْبَة خديجة لمحمد ابن أخيه، وتلك التي قالها عامر بن الظَّرِب حين خُطِبت ابنته، ومنها خُطَب المنافرات كتلك التي تبودلت بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريين، ومنها خطب السفارات، كما هو الحال في مجموعة الخطب التي خطبها بعض رؤساء العرب في حضرة كسرى في إيوانه، ومنها خطب الكهان والكواهن التي يتنبأون فيها بالغيب حسبما كانوا يعتقدون.

ومنها خطب الوصايا كتلك الخطبة التي ألقاها ذو الإصبع العَدْواني على ابنه، ونظيرتها التي ألقاها قيس بن زهير على بني النمر بن قاسط، وكذلك الخطبة الرائعة التي وصَّتْ بها أمامةُ بنتُ الحارث ابنتَها أُمَّ إياس عند زفافها على الحارث بن عمرو مَلِك كِنْدَة... إلخ.

وكان العرب يخطبون في الأسواق والمجالس والقصور الملكية وعند الكعبة وعلى نَشَزٍ من الأرض وفي الحرب.

كما كانوا يخطبون وقوفاً، وعلى الرواحل، أو مسندين ظهورهم إلى الكعبة... وهكذا.

العرب وعاداتهم في الخطابة:

وكان من عادتهم في الخطابة، كما ألمعنا من قبل، لُبْس العمامة والإمساك بالعصا، تلك العادة التي عمل الشعوبيون على التنقص منها والإزراء على العرب بسببها، فتصدى لهم الجاحظ مبيّناً فضل العصا في صفحات طويلة إنثال عليه الكلام فيه إنثيالاً في كتابه: البيان والتبيين.

وقد مر بنا أثناء دراستنا لهذا الفن عند الجاهليين طائفة من مشاهير خطبائهم، وهذه أسماء طائفة أخرى منهم:

سهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وقيس بن الشماس وسعد بن الربيع وهانئ بن قبيصة وزهير بن جناب وربيعة بن حُذَار ولبيد بن ربيعة وهرم بن قطبة الفزاري وعمرو بن كلثوم التغلبي وحنظلة بن ضرار الضبّي.

والآن أترك القارئ مع هذه النصوص الخطابية التي وصلتنا عن ذلك العصر: فمنها خطبة مرثد الخير التي سلفت الإشارة إليها آنفاً، وهذا نصها: إن التخبط وامتطاء الهَجَاج «**أي العناد وركوب الرأس**»، واستحقاب اللَّجَاج، سيقفكما على شَفَا هُوَة في تورُّدها بوار الأصيلة، وانقطاع الوسيلة، فتلافَيَا أمركما قبل انتكاث العَهْد، وانحلال العَقْد، وتشتت الألفة، وتباين السُّهْمة (أي القرابة) وأنتما في فسحةٍ رافهة، وقدم واطدة، والمودَّة مُثْرِيَة، والبُقْيَا مُعْرِضَة، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم منَ العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغي إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صُيُور أمورهم، فتلافَوُا القُرْحَة قبل تفاقم الثَّاي «**أي قبل انتشار الفساد**» واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سُفِكَت الدماء، استحكمت الشحناء،

وإذا استحكمت الشحناء، تقضَّبَتْ عُرَى الإبقاء، وشمل البلاء.

ومنها خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ يلفت أنظار السامعين إلى صروف الدهر وما ينبغي أن يعتبر به العاقل: أيها الناس، اسمعوا وَعُوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذات أبراج، ونجومٌ تَزْهَر، وبحارٌ تَزْخَر، وجبالٌ مُرْساة، وأرضٌ مُدْحاة، وأنهارٌ مُجْرَاة. إنّ في السماء لَخَبَرًا، وإن في الأرض لَعِبَراً. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟

أَرَضُوا فأقاموا أم تُرِكوا فناموا ؟

يُقْسِم قُسٌّ بالله قَسَمًا لا إثم فيه إن لله ديناً هو أَرْضَى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكراً.

ويُرْوَى أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصـــائرْ

لما رأيتُ مواردًا للموت ليس لها مصـــادرْ

ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغرْ

لا يرجع الماضي إليَّ ولا من الباقين غـــابرْ

أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القوم صـــائرْ

ومنها كذلك خطبة عمرو بن الشريد السُّلَمِي أمام كسرى يفتخر بقومه العرب: أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام في السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفي كثيرٍ ثِقْلَة، وفي قليلٍ بُلْغَة، وفي الملوك سَوْرَة العز، وهذا منطق له ما بعده: شَرُفَ فيه مَنْ شَرُف، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت

لضَيْمك ولم نَفدْ لسخطك، ولم نتعرض لرفْدك. إن في أموالنا مُنْتَقَدًا، وعلى عِزّنا مُعْتَمَداً. إن أَوْرَيْنا ناراً أثقبْنا، وإن أَودَ دهرٌ بنا اعتدلْنا، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يُحْمَد الصَّدَر، ويُسْتَطاب الخَبر [١].

❀ ❀ ❀

خطبة جد النبي:

ومنها كذلك خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشاً على إكرام حجاج البيت الحرام: كان هاشم بن عبد مناف يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول: يا معشر قريش، أنتم سادة العرب:

أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاماً، وأوسطها أنساباً، وأقربها أرحاماً.

يا معشر قريش، أنتم جيران بيت الله: أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره.

فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شُعْثًا غُبْراً من كل بلد.

فوَرَبِّ هذه البَنِيَّة لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتُكموه. ألا وإني مخرجٌ من طيِّب مالي وحلاله ما لم يُقْطَع فيه رَحِم، ولم يُؤْخَذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فواضعُه. فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فَعَل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخْرِج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيِّباً: لم يؤخذ ظلماً، ولم يُقْطَع في رحم، ولم يغتصب [٢].

---

(١) فن الخطابة عند البلغاء ص٣٦٦ - د. حسين الكرباسي، مطبعة نينوى بغداد.

(٢) فن الخطابة عند البلغاء ص١٢٢ - د. حسين الكرباسي، مطبعة نينوى بغداد.

الوصية الخالدة:

ومنها وصية ذي الإصبع العَدْواني لابنه عند إشرافه على الموت:

يا بُنَيّ، إن أباك قد فَنِيَ وهو حيّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني مُوصِيك بما إن حفظتَه بلغْتَ في قومك ما بلغتُه، فاحفظ عني:

أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضعْ لهم يرفعوك، وأبسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يُسَوِّدوك (أي يجعلوك سيّداً عليهم)، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، وأسمح بمالك، وأحْم حريمك، وأعزز جارك، وأَعِنْ من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضَة في الصريخ، فإن لك أَجَلاً لا يَعْدُوك، وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سُؤْدَدُك [1].

(١) فن الخطابة عند البلغاء ص٣٢٢ – د. حسين الكرباسي، مطبعة نينوى بغداد.

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم

٢. فن الخطابة – د. حسين الكرباسي.

٣. جمهرة الأمثال – لابي هلال العسكري.

٤. أسباب النزول – الواحدي.

٥. بحار الأنوار – المجلسي.

٦. الكافي – الكليني.

٧. الحدائق النضرة – البحراني.

٨. تفسير الجواهر الحسان – الثعلبي.

٩. تفسير الزمخشري .

١٠. ديوان الفرزدق – الشاعر الفرزدق.

١١. سيرة رسول الله – لابن هشام.

١٢. تاريخ الطبري – المؤرخ الطبري.

١٣. كشكول العرب – د. سلام البغدادي.

١٤. الأمالي - الشيخ الصدوق.

١٥. تاريخ الأدب العربي - حنا الفاخوري.

١٦. العصر الجاهلي - د. شوقي ضيف.

١٧. الفيصل في الجموع - عباس أبو السعود.

١٨. تاريخ الأدب العرب - د. عبد الحليم النجار.

١٩. العقد الفريد - لابن عبد ربه العسقلاني.

٢٠. السجع وأطواره في الأدب العربي - فوزي عبد الستار.

٢١. المكونات الأولى للثقافة العربية - د. عز الدين إسماعيل.

٢٢. صور البديع وفن الأسجاع - علي الجندي.

٢٣. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د. جواد علي.

٢٤. البيان والتبيان - الجاحظ.

٢٥. الخطابة العربية في عصرها الذهبي - د. إحسان النص.

٢٦. تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان.

٢٧. الخطب والمواعظ - محمد عبد الغني حسن.

٢٨. الأدب الجاهلي - د. طه حسين.

٢٩. قراءة في الأدب الجاهلي - د. محمد الموافي.

الفهرس

تمهيد..... ٥
الفصل الأول..... ٩
صورة المجتمع الجاهلي في القرآن..... ١١
من هم الآت والعزى ومناة..... ١٧
من هم إساف ونائلة..... ١٨
الجن والملائكة..... ١٩
الموت ويوم الحساب..... ٢٣
النبي وصراعه مع الكفار..... ٢٦
العبادات الجاهلية..... ٢٩
تعاملات أهل الجاهلية..... ٣٦
الوأد والعادات المتوحشة..... ٤٠
المال المغصوب والإرث..... ٤١
الجمع بين الأختين في الجاهلية..... ٤٣
الربا في الجاهلية..... ٤٥
القمار في الجاهلية..... ٤٨
القرآن والتحريم..... ٥٠
الكيل والميزان..... ٥١
الجاهليون وتحريم الأطعمة..... ٥٤
الخمر والجاهليين..... ٥٧

المجتمع العربي في الجاهلية..... ٥٩
الجاهليون وطبيعة عيشهم..... ٦٣
المساكن في الجاهلية..... ٦٥
حيوانات الجزيرة العربية..... ٦٦
الثمار والأشجار..... ٦٨
الجاهليون والمعادن والجواهر..... ٦٩
لسان العروبة..... ٧٠
عادات وتقاليد..... ٧٣
المجوس وذكره في القرآن..... ٧٧
الفصل الثاني..... ٧٩
أمثال العرب في الجاهلية..... ٨١
دراسة لغوية إجتماعية..... ٨١
الألفاظ والأمثال الجاهلية..... ٨٧
التركيب في الأمثال الجاهلية..... ٩٤
الأمثال وأبيات الشعر..... ١٠١
الأسماء الأعلام في الجاهلية..... ١٠١
أسماء الحيوان..... ١٠٥
أسماء الطيور..... ١٠٦
أسماء الشجر والنبات..... ١٠٨
الجاهليين والجغرافية والفلكية..... ١٠٩
مهن الجاهليون..... ١١٢
الجاهليون يمارسون الطب..... ١١٣
بعض الأمثال في أطعمتهم..... ١١٥

الخرافات والأساطير في الجاهلية..... ١٢٢
الفصل الثالث..... ١٢٧
أسْجاع الكُهّان..... ١٢٩
السجع في عصر الإسلام..... ١٣٨
السجع والخطباء..... ١٤٠
الإسلام يحارب الكهان..... ١٤٣
أعداء الإسلام في العصر الحديث..... ١٤٦
القرآن والقسم..... ١٤٨
الفصل الرابع..... ١٥٣
الخطابة عند الجاهليين..... ١٥٥
القرآن وفن الخطابة..... ١٦٨
الخطابة الشائعة في الجاهلية..... ١٧٠
الرد على خنافر..... ١٨٠
الخطب الخالدة..... ١٩٣
الخطب في العصر الجاهلي..... ١٩٤
جمالية الخطابة..... ٢٠٢
تعليقاً على جمالية الخطابة..... ٢٠٩
العرب وعاداتهم في الخطابة..... ٢٢٠
خطبة جد النبي..... ٢٢٢
الوصية الخالدة..... ٢٢٣
الفهرس..... ٢٢٧